د. فريد الأنصاري

مَجَالِسُ القُرآن

مَدْخَلٌ إلى مَنْهَجِ تَدَارُسِ القرآن العظيم وتَدَبُّرِه

من التَّلَقِّي إلى التَّزْكِيَة

سلسلة "اخترت لكم" رقم: ...

منشورات ألوان مغربية

منشورات ألوان مغربية

المدير المسؤول: عبد العزيز الفقير

الكتاب: مجالس القرآن

الكاتب: د. فريد الأنصاري

الناشر: ألوان مغربية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 1425هـ/2004

الإيداع القانوني: ......

الطبع: مطبعة النجاح الجديدة

تطلب جميع منشوراتنا من:

ألوان مغربية للنشر والتوزيع ص.ب: 2209 مكناس المدينة

الهاتف: 063456606

البريد الإلكتروني: E-Mail: alwan_ma @ hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

حق القرآن

(أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)؟!

(الحديد:16)

نِعْمَةُ القرآن

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ!)

(آل عمران:164)

بَابُ القرآن

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)؟!

(محمد:24)

فهرس المحتويات

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن العظيم (رُوحاً مِن أمْرِهِ) جل عُلاه! وجعله نورا يحيي به موات القلوب! ويفرج به ظلمات الكروب! ويمسح به الخطايا، ويشفي به البلايا!

وصلى الله وسلم وبارك على البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا محمد النبي الأمي، الذي أرسله الله رحمةً للعالمين؛ فلم يزلε – مذ أكرمه الله تعالى بالنبوة الخاتمة – كوكباً دُرّيّاً، متوقدا في سماء البشرية إلى يوم الدين! (يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)(الأحزاب:45-46). وإنما أشرق نورُه عليه الصلاة والسلام بما أنعم الله عليه من جلال الوحي وجماله: هذا القرآن العظيم! فكانε بذلك هداية للعالمين. (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(المائدة:15-16).

ذلك هو النور..! ولكنْ أين من يرفع بصره إلى السماء..؟ (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً)!!(الفرقان:30)

أما بعد؛

فإلى العلماء العاملين .. إلى السادة المربّين .. إلى أهل الفضل والصلاح .. إلى دعاة الخير والفلاح .. إلى الشباب الباحثين عن وَارِدٍ من نور، يخرجهم من ظلمات هذا الزمان!.. إلى جموع التائبين، الآئبين إلى منهج الله وصراطه المستقيم.. إلى المثقلين بجراح الخطايا والذنوب مثلي! الراغبين في التطهر والتزكية.. والعودة إلى صَفِّ الله، تحت رحمة الله .. إلى الذين تفرقت بهم السبُلُ حيرةً واضطرابا، مترددين بين هذا الاجتهاد وذاك، من مقولات الإصلاح!

إليكم أيها الأحباب أبعث رسالة القرآن!

إليكم سادتي أبعث قضية القرآن، والسِّرُّ كلُّ السِّرِّ في القرآن!

ولكن كيف السبيل إليه؟

أليس بالقرآن وبحِكْمَةِ القرآن جعل اللهُ – تَقَدَّسَتْ أسماؤُهُ – عَبْدَهُ محمداً بنَ عبدِ الله النبي الأمي – عليه صلوات الله وسلامه – مُعَلِّمَ البشرية وسيد ولد آدم؟ وما كان يقرأ كتابا من قبل ولا كان يخطه بيمينه!

ثم أليس بالقرآن — وبالقرآن فقط! – بَعَثَ اللهُ الحياةَ في عرب الجاهلية فنقلهم من أُمَّةٍ أُمِّية ضالة؛ إلى أُمَّةٍ تمارس الشهادة على الناس كل الناس؟

ألم يكن القرآنُ في جيل القرآن مفتاحا لعالم المُلْكِ والملكوت؟ ألم يكن هو الشفاء وهو الدواء؟ (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا!)(الإسراء:82) ألم يكن هو الماء وهو الهواء؛ لكل (من كان حيا) – على الحقيقة – من الأحياء؟ (إِنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ. لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ!)(يس:69-70)

ألم تكن تلاوته – مجرد تلاوته – من رجل قرآني بسيط تُحْدِثُ انقلابا ربانيا عجيبا، وخرقا نورانيا غريبا في أمر المُلْكِ والملكوت؟ ألم تتنزل الملائكة ليلاً مثل مصابيح الثريا لسماع القرآن من رجل منهم، بات يَتَبَتَّلُ في سكون الدُّجَى، يناجي ربه بآيات من بعض سوره؟[1] ألم يقرأ رجل آخَرُ سورةَ الفاتحة على لَدِيغٍ من بعض قبائل العرب، اعتقله سم أفعى إلى

[1] عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رضي الله عنه أَنّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ رضي الله عنه؛ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ. فَقَرَأَ؛ ثُمّ جَالَتْ أُخْرَىَ! فَقَرَأَ؛ ثُمّ جَالَتْ أَيْضاً! قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَىَ؛ [يعني: ابنه الصغير] فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظّلّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السّرُجِ! [جمع سِراج: وهي المصابيح] عَرَجَتْ فِي الْجَوّ حَتّى مَا أَرَاهَا! قَالَ فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِε، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي! فَقَالَ رَسُولُ اللهِε: «اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ!» قَالَ: فَقَرَأْتُ؛ ثُمّ جَالَتْ أَيْضاً! فَقَالَ رَسُولُ اللهِε: «اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ!» قَالَ: فَقَرَأْتُ؛ ثُمّ جَالَتْ أَيْضاً! فَقَالَ رَسُولُ اللهِε: «اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ!» قَالَ: فَانْصَرَفْتُ. وَكَانَ يَحْيَىَ قَرِيباً مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ. فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظّلّةِ. فِيهَا أَمْثَالُ السّرُجِ. عَرَجَتْ فِي الْجَوّ حَتّى مَا أَرَاهَا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِε: «تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ! وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النّاسُ، مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ!» رواه مسلم. وقد روى البخاري نحوه مختصرا.

الأرض، فلبث ينتظر حتفه في بضع دقائق، حتى إذا قُرِئَتْ عليه (الحمد لله رب العالمين) – التي يحفظها اليوم كل الأطفال! – قام كأنْ لم يكن به شيء قط؟[2]

أليس هذا القرآن هو الذي صنع التاريخ والجغرافيا للمسلمين؛ فكان هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف؟ وكان له هذا الرصيد الحضاري العظيم، الموغل في الوجدان الإسلامي؛ بما أعجز كل أشكال الاستعمار القديمة والجديدة عن احتوائه وهضمه! فلم تنل منه معاول الهدم وآلات التدمير بشتى أنواعها وأصنافها المادية والمعنوية، وبقي – رغم الجراح العميقة جدا – متماسك الوعي بذاته وهويته!

وما كانت الأمة الإسلامية قبل نزول الآيات الأولى من (سورة العلق) شيئا مذكورا! وإنما كان هذا القرآن فكانت هذه الأمة! وكانت (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ!)(آل عمران:110)

أليس القرآن الذي نتلوه اليوم هو عينه القرآن الذي تلاه أولئك من قبل؟

فما الذي حدث لنا نحن أهلَ هذا الزمان إذن؟

ذلك هو السؤال! وتلك هي القضية!

لا شك أن السر كامِنٌ في منهج التعامل مع القرآن! وذلك هو سؤال العصر! وقد كتب غير واحد من أهل العلم والفضل حول إشكال: (كيف نتعامل مع القرآن؟)[3]

ولقد أجمع السابقون واللاحقون على أن المنهج إنما هو ما كان عليه محمدε وأصحابه من أمر القرآن. فمن ذا اليوم يستطيع الصبر عليه؟ وإنما هو تَلَقٍّ للقرآن آيةً آيةً، وتَلَقٍّ عن القرآن حِكْمَةً حِكْمَةً! على سبيل التخلق الوجداني، والتَّمَثُّلِ التربوي لحقائقه الإيمانية العُمُرَ كلَّه! حتى يصير القرآن في قلب المؤمن نَفَساً طبيعيا، لا يتصرف إلا من

---

[2] عن أبي سعيد الخدري قال: (نزلنا منزلا فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد الحي سليم لُدِغَ فهل من رَاقٍ؟ فقام معها رجلٌ منا، ما كنا نظنه يحسن رُقْيَةً! فَرَقَاهُ بفاتحة الكتاب؛ فبرأ! فأعطوه غنما وسقونا لبنا. فقلنا: أكنت تحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب! قال: فقلت: لا تحركوها (يعني الغنم) حتى نأتي النبيε فأتينا النبيε، فذكرنا ذلك له، فقال: ما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم!) وفي صيغة البخاري: (فسألوه، فضحك، وقال: وما أدراك أنها رقية؟ خذوها واضربوا لي بسهم!) متفق عليه.

[3] منهم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، والدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله.

خلاله، ولا ينطق إلا بحكمته! فإذا بتلاوته على نفسه وعلى من حوله غَيَّرُ تلاوة الناس، وإذا بحركته في التاريخ غير حركة الناس!

وهكذا صنع الرسولε – بما أُنْزِلَ عليه من القرآن آيةً آيةً – نَماذِجَ حوَّلَتْ مَجْرَى التاريخ! (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً)(الإسراء:106) فلم تكن له وسائل ضخمة ولا أجهزة معقدة! وإنما هي شِعَابٌ بين الجبال، أو بيوتٌ بسيطة، ثم مساجدُ آمنة مطمئنة! عُمْرانُهَا: صلاةٌ ومجالسُ للقرآن! وبرامجها: تلاوةٌ وتعلمٌ وتزكية بالقرآن! بدءا بشعاب مكة، ودار الأرقم بن أبي الأرقم، وانتهاءً بمسجد المدينة المنورة، عاصمة الإسلام الأولى، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام! كانت البساطة هي طابع كل شيء، وإنما العظمة كانت في القرآن، ولمن تَشَرَّبَ – بعد ذلك – روحَ القرآن!

هكذا كانت مجالسُهε ثم مجالسُ أصحابه في عهده، ومن بعده، عليه السلام مجالسَ قرآنيةً، انعقدت هنا وهناك، وتناسلت بصورة طبيعية؛ لإقامة الدين في النفس وفي المجتمع معا على السواء، وبناء النسيج الاجتماعي الإسلامي من كل الجوانب، بصورة كلية شمولية؛ بما كان من شمولية هذا القرآن، وإحاطته بكل شيء من عالم الإنسان! وذلك أمر لا يحتاج إلى برهان! واقرأ إن شئت الآية المعجزة! ولكن بشرط! اقرأ وتَدَبَّرْ! تَدَبَّرْهَا طويلا! وقِفْ عليها مَلِيّاً! حتى بعد طَيِّ صفحات هذه الورقات! فيا أيها المؤمن السائر إلى مولاه! الباحث بكل شوق عن نوره وهداه! أبْصِرْ بقلبك – إنْ كنتَ من المبصرين – قولَه تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ!)(آل عمران:164)

ولك أن تشاهد هذه الْمِنَّةَ العظمى من خلال عديلتها، وهي قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)(الجمعة:2).

نعم! هذه هي الآية، وإنها لعَلاَمَةٌ وأيُّ علامة! فلا تَنْسَ الشرط!

تلك إذن كانت رسالة القرآن، وتلك كانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام!

فيا أتباع محمدε! يا شباب الإسلام! ويا كهوله وشيوخه! يا رجاله ونساءه! ألم يئن الأوان بعد لتجديد رسالة القرآن؟ ألم يئن الأوان بعد لتجديد عهد القرآن؟ وإنما قضية الأمة كل

قضيتها ههنا: تجديد رسالة القرآن! (أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)؟!(الحديد:16)

فيا أيها الأحباب! لنعد إلى مدرسة رسول اللهε! لنعد إلى مدرسة القرآن! ومجالس القرآن! على منهج القرآن! صافية نقية! كما شهد عليها اللهُ جلَّ جلالُه في جيل القرآن، لا كما تلقيناها مشوهة من عصور الْمَوَاتِ في التاريخ!

من أجل هذا وذاك إذن؛ كانت هذه الورقات القليلة. غايتها بيان منهج الاشتغال بكتاب الله، وكيفية إعادة بناء الأنفس على وِزَانِه، وَوِفْقَ مقاييس تصميمه! فلا تتخذها مَشْغَلَةً لك عن القرآن العظيم! ولا حاجبةً لك عن مكنون دُرِّهِ الكريم! بل خذها آلةَ استبصارٍ فحسب! كسائر آلات فقه الدين، مستقاة من كتاب الله رأساً! فإنما هي آيات تربطك بآيات، على نوع من التدريج إلى خوض بحر القرآن! حتى إذا وصلتَ – أخي الحبيب – إلى الغاية، وحصل لك الإبصار بالآيات مُباشَرَةً، وبدأت تكتسب حقائق الإيمان مُشَاهَدَةً؛ فدع عنك هذه الوريقات وأمثالها جانبا! فما كان ليكون بين الله وعبده مِنْ وسيط! كيف لا؟ وقد قال لمن هو خيرٌ مني ومنك: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ. أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ. فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِيَ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ!)(البقرة:186).

وإنما كتبنا ههنا ما كتبنا من كلمات؛ استجابةً لرغبةٍ ملحةٍ من بعض محبي القرآن العظيم، وروادِ مجالسه العامرة؛ من بعدما صدر كتيبنا السابق: (بلاغ الرسالة القرآنية)؛ فكان له ما كان – بفضل الله – من الأثر في لفت الانتباه إلى منهج القرآن، ومدرسته الربانية العظيمة؛ فحدثت يقظة لدى بعض أهل الخير، نبهت أرواحهم إلى حياض الروح المتدفقة من شلال القرآن! فرغبوا مني كتابة ورقات قلائل، تشبه أن تكون (دليلا عمليا)؛ لمساعدة من لا خبرة له سابقة في تدارس القرآن وتدبره، وتشرح الخطوات المنهجية بصورة مبسطة، وسهلة؛ حتى يَعِيَها كلُّ قارئ ومستمع؛ رغبةً في تعميم الاشتغال بالقرآن، والرجوع إليه لتربية الفكر والوجدان، وتمتين نسيج المجتمع على مِنْسَجَةِ الإيمان. وكذلك كان، والله المستعان!

ولهذا فهي لا تعدو أن تكون جمعا لفقرات كتبتها من قبل، جمعتها من هنا وهناك([4]). وإنما الجديد فيها هنا هو أنها رُتِّبَتْ خطواتُها، وفُصِّلَتْ بصورة (تقنية) متدرجة، مع شروح وتوضيحات جديدة، قابلة للتصريف العملي في المجتمع بصورة تلقائية، مع إضافة بعض النصوص من كتاب الله وسنة رسولهε، مما فيه زيادة بيان للمنهج التطبيقي لإقامة (مجالس القرآن). ولذلك جاءت أشبه ما تكون بـ(الدليل المرشد) إلى مجالس القرآن الكريم. تلك هي الفكرة التي انبنت عليها ورقة هذا المشروع، فإن أصبتُ في منهج التدليل على التزود من كتاب الله؛ لتجديد الدين والإيمان فالحمد لله، وإن أخطأتُ فالغاية واضحة! وأستغفر الله! وإنما المقصود هو العودة إلى القرآن! وإنما الاجتهاد في منهج التوظيف والتنزيل! فلا يكن خطئي في منهج التوجيه والبيان صارفا لك عن حق اليقين، الذي هو هذا القرآن العظيم! (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)(الإسراء:9).

تلك غايتنا، والله ولينا، عليه وحده – جَلَّ وعَلا – توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير! (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفُ رَّحِيم)(الحشر:10).

وكَتَبَهُ – بمكناسة الزيتون – عبدُ ربه، راجي عفوه وغفرانه:

فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي

عفا الله عنه، وغفر له ولوالديه ولسائر المسلمين! آمين!

وكان تمام تصنيفه وتنقيحه بحمد الله

يوم: الخميس 18 جمادى الثانية: 1425هـ، الموافق لـ:2004/08/05م.

---

4 كان ذلك من كتيبنا (بلاغ الرسالة القرآنية) ومن (ميثاق العهد)، ثم الإضافات والشروح.

حاجتنا إلى القرآن العظيم

من أنت؟

أنا، وأنت!.. ذلك هو السؤال الذي قلما ننتبه إليه! والعادة أن الإنسان يحب أن يعرف كل شيء مما يدور حوله في هذه الحياة، فيسأل عن هذه وتلك، إلا سؤالا واحدا لا يخطر بباله إلا نادرا! هو: من أنا؟ نعم، فهل سألت يوما نفسك عن نفسك: من أنت؟

ولعل أهم الأسباب في إبعاد ذلك وإهماله يرجع في الغالب إلى معطى وهمي، إذ نظن أننا نعرف أنفسنا فلا حاجة إلى السؤال! تغرنا إجابات الانتماء إلى الأنساب والألقاب، وتنحرف بنا عن طلب معرفة النفس الكامنة بين أضلعنا، التي هي حقيقة (من أنا؟) و(من أنت؟) ويتم إجهاض السؤال في عالم الخواطر؛ وبذلك يبقى الإنسان أجهل الخلق بنفسه، فليس دون الأرواح إلا الأشباح!

ولو أنك سألت نفسك بعقلك المجرد: من أنتِ؟ سؤالا عن حقيقتها الوجودية الكاملة؛ لما ظفرت بجواب يشفي الغليل! وإذن؛ تدخل في بحر من الحيرة الوجودية!

أنا وأنتَ، تلك قصة الإنسان منذ بدء الخلق إلى يوم الناس هذا.. إلى آخر مشهد من فصول الحياة في رحلة هذه الأرض! وهي قصة مثيرة ومريرة!

ولذلك أساسا كانت رسالةُ القرآن هي رسالة الله إلى الإنسان؛ لتعريفه بنفسه عسى أن يبدأ السير في طريق المعرفة بالله؛ إذْ معرفة النفس هي أول مدارج التعرف إلى الله. وليس صدفة أن يكون أول ما نزل من القرآن: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)(العلق:1-2). ثم تواتر التعريف بالإنسان – بَعْدُ – في القرآن، في غير ما آية وسورة، من مثل قوله سبحانه: (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا. إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)(الإنسان:1-3) وكذلك آيات السيماء الوجودية للإنسان، الضاربة في عمق الغيب، من قوله تعالى: (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)(السجدة:6-9).

ومن هنا أساسا كانت قضية الشيطان – بما هو عدو للإنسان – هي إضلاله عن معالم الطريق، في سيره إلى ربه! بدءا بإتلاف العلامات والخصائص المعرفة بنفسه، والكاشفة له عن حقيقة هويته، وطبيعة وجوده! حتى إذا انقطعت السبل بينه وبين ربه؛ أَلَّهَ نفسَه، وتمرد على خالقه!

ولم يزل الإنسان في قصة الحياة يضطرب بين تمرد وخضوع، في صراع أبدي بين الحق والباطل إلى الآن! فكانت لقصته تلك عبر التاريخ مشاهدُ وفصول! وكانت له مع الشيطان ومعسكره معاركُ ضارية، فيها كَرٌّ وفَرٌّ، وإقبالٌ وإدبار!

قال عز وجل حكايةً عن إبليس: (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا. وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً)(الإسراء:62-65).

من أجل ذلك كان للإنسان في كل زمان قصةٌ مع القرآن، وقصةٌ مع الشيطان!

فيا حسرة عليك أيها الإنسان! هذا عمرك الفاني يتناثر كل يوم، لحظةً فلحظة، كأوراق الخريف المتهاوية على الثرى تَتْرى! أُرْقُبْ غروبَ الشمس كل يوم؛ لتدرك كيف أن الأرض تجري بك بسرعة هائلة؛ لتلقيك عن كاهلها بقوة عند محطتك الأخيرة! فإذا بك بعد حياة صاخبة جزءٌ حقير من ترابها وقمامتها! وتمضي الأرض في ركضها لا تبالي.. تمضي جادةً غير لاهية –كما أُمِرَتْ – إلى موعدها الأخير! فكيف تحل لغز الحياة والموت؟ وكيف تفسر طلسم الوجود الذي أنت جزء منه ولكنك تجهله؟ كيف وها قد ضاعت الكتب كلها؟ ولم يبق بين يديك سوى هذا (الكتاب)!

فأين تجد الهداية إذن يا ابن آدم، وأنى تجدها؛ إن لم تجدها في القرآن؟ وأين تدرك السكينة إن لم تدركها في آياته المنصوبة – لكل نفس في نفسها – علامات ومبشرات في الطريق إلى الله؟ (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا. وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)(الإسراء:9 – 10).

نَعَم، بقي القرآن العظيم إعجازا أبديا، يحي الموتى، ويبرئ المرضى، ويقصم قلوب الجبابرة، ويرفع هامات المستضعفين في العالمين، ويحول مجرى التاريخ! وكل ذلك كان – عندما كان – بالقرآن، وبالقرآن فقط! وهو به يكون الآن، وبه يكون كلما حَلَّ الإبَّانُ من موعد التاريخ، ودورة الزمان! على يد أي كان من الناس! بشرط أن يأخذه برسالته، ويتلوه حق تلاوته! وتلك هي القضية!

ماذا حدث لهؤلاء المسلمين؟ أين عقولهم؟ أين قلوبهم؟ أليس ذلك هو القرآن؟ أليس ذلك هو كلام الله؟ أليس الله رب العالمين؟ أليس الخلق –كل الخلق – عبيده طوعا أو كرها؟ ففيم التردد والاضطراب إذن؟ لماذا لا ينطلق المسلم المعاصر يشق الظلمات بنور الوحي الساطع، الخارق للأنفس والآفاق؟

ألم يقل الله في القرآن عن القرآن، بالنص الواضح القاطع: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ! وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)؟(الحشر:21). فهل هذه خاصية ماتت بموت محمد رسول الله؟ أم أن معجزة القرآن باقية بكل خصائصها إلى يوم القيامة؟ ورغم أن الجواب هو من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة لكل مسلم؛ فإن رسول اللهε يلقي البشرى إلى هذه الأمة، نورا من الأمل الساطع الممتد إلى الأبد! فقد دخل عليه الصلاة والسلام المسجدَ يوما على أصحابه ثم قال: (أبشروا.. أبشروا..! أليس تشهدون ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا : بلى، قال : فإن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفُه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به! فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً!)([5]) ومثله أيضا قولهε بصيغة أخرى: (كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)([6]). تلك حقيقة القرآن الخالدة، ولكن أين من يمد يده؟

---

[5] رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حميد في المنتخب من المسند. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 713. نشر مكتبة المعارف بالرياض، لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد. طبعة جديدة بتاريخ: 1415هـ/1995.

[6] رواه الطبري في تفسيره:31/4، نشر دار الفكر بيروت لبنان: 1405هـ. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:4473.

ألم يأن للمسلمين – وأهل الشأن الدعوي منهم خاصة – أن يلتفتوا إلى هذا القرآن؟ عجبا! ما الذي أصم هذا الإنسان عن سماع كلمات الرحمن؟ وما الذي أعماه عن مشاهدة جماله المتجلي عبر هذه الآيات العلامات؟ أليس الله – جل ثناؤه – هو خالق هذا الكون الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؟ أليس هو – جل وعلا – رب كل شيء ومليكه؟ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ أوَليس الله هو مالك الملك والملكوت؟ ذو العزة والجبروت؟ لا شيء يكون إلا بأمره! ولا شيء يكون إلا بعلمه وإذنه! أوَليس الخلق كلهم أجمعون مقهورين تحت إرادته وسلطانه؟ فمن ذا قدير على إيقاف دوران الأرض؟ ومن ذا قدير على تغيير نُظُم الأفلاك في السماء؟ من بعد ما سوَّاها الله على قدر موزون، (فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ إِيتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)؟(فصلت:10) ومن ذا مِنَ الشيوخ المعمَّرين قديرٌ على دفع الهرم إذا دب إلى جسده؟ أو منع الوَهَنِ أن ينخر عظمه، ويجعد جلده؟ ويحاول الإنسان أن يصارع الهرم والموت! ولكن هيهات! هيهات!

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيُوهِنَهَا *** فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ!

الموت والفناء هو اليقينية الكونية المشتركة بين جمع الخلق، كافرهم ومؤمنهم!

يولد الإنسان يوما ما.. وبمجرد التقاط نفَسِه الأول من هواء الدنيا يبدأ عمره في عَدٍّ عَكْسِي نحو موعد الرحيل..! فكان البدءُ هو آية الختام! هكذا يولد الإنسان وبعد ومضة من زمن الأرض تكون وفاته! (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ)(الرحمن:24-25).

ذلك هو الله رب العالمين، يرسل رسالته إلى هذا الإنسان العبد، فيكلمه وحيا بهذا القرآن! ويأبى أكثرُ الناس إلا تمردا وكفورا! فوا أسفاه على هذا الإنسان! ويا عجبا من أمر هؤلاء المسلمين! كأن الكتاب لا يعنيهم، وكأن الرسول لم يكن فيهم! (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون!)(يس:30)

إن هذا القرآن هو الروح الذي نفخه الله في عرب الجاهلية؛ فأخرج منهم خير أمة أخرجت للناس! وانبعثوا بروح القرآن من رماد الموت الحضاري؛ طيوراً حية تحلق في الآفاق، وخرجوا من ظلمات الجهل ومتاهات العمى أدِلاَّءَ على الله، يُبْصِرون بنور الله ويُبَصِّرون العالم الضال حقائق الحياة! ذلك هو سر القرآن، الروح الرباني العظيم، لا يزال هو هو! روحا ينفخ

الحياة في الموتى من النفوس والمجتمعات؛ فتحيا من جديد! وتلك حقيقة من أضخم حقائق القرآن المجيد! قال جل ثناؤه: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)(الشورى:52-53).

من أنت؟ تلك قصة النبأ العظيم! نبأ الوجود الضخم الرهيب، من البدء إلى المصير! النبأ الذي جاءت به النُّذُرُ من الآيات: (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا: يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ!)(الأنبياء:97). وقريبا جدا – واحسرتاه! – تنفجر به الأرض والسماوات! (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ! كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)(الأنبياء:104).

ذلكم هو النذير القرآني الرهيب! ولقد أعذر من أنذر! وما بقي لمن بلغه النبأ العظيم من محيص؛ إلا أن يتحمل مسؤوليته الوجودية، ويتخذ القرار، قراراً واحدا من بين احتمالين اثنين، لا ثالث لهما: النور أو العَمَى! وما أنزل الله القرآن إذْ أنزله إلا لهذا! ولقد صَرَّفَه على مدى ثلاث وعشرين سنة؛ آيةً آيةً، كل آية في ذاتها هي بصيرة للمستبصرين، الذين شَاقَهُم نورُ الحق فبحثوا عنه رَغَباً ورَهَباً؛ عسى أن يكونوا من المهتدين. وبقي القرآن بهذا التحدي الاستبصاري يخاطب العُمْيَ من كل جيل بشري! قال الحقُّ جل وعلا: (قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ)(الأنعام:104).

من أجل ذلك؛ نرجع آئبين إلى رسالة الله، نقرؤها من جديد، نستغفره تعالى على ما فرطنا وقصرنا! قدوتنا في هذه السبيل رسول اللهε بسنته الزكية، التي لم تكن في كل تجلياتها النبوية – قولا وفعلا وتقريرا – إلا تفسيرا للقرآن العظيم! وكفى بكلمة عائشة أم المؤمنين، في وصفه – عليه الصلاة والسلام – لما سئلت عن خُلُقِهε؛ فقالت بعبارتها الجامعة المانعة: (كان خُلُقُه القرآن!)([7]) ولقد ضل وخاب من عزل السنة عن الكتاب!

نرجع إذن إلى القرآن، نحمل رسالته إن شاء الله –كما أمر الله – نخوض بها تحديات العصر، يحدونا اليقين التام بأن لا إصلاح إلا بالصلاح! وأن لا ربانية إلا بالجمع بينهما! وأن

---

[7] رواه مسلم.

لا إمكان لكل ذلك – صلاحاً وإصلاحاً وربانيةً – إلا بالقرآن المجيد! وهو قول الحق – جل ثناؤها – في آية عجيبة، آية ذات علامات – لمن يقرأ العلامات – ولكل علامة هدايات. قال تعالى ذِكْرُه: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)(الأعراف:170) التَّمْسِيكُ بالكتاب، وإقامُ الصلاة: أمران كفيلان برفع المسلم إلى منزلة المصلحين! هكذا: (إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ). وإن تلك لآية! ومثلها قوله تعالى: (وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)(آل عمران:79). وقد قُرِئَتْ: (تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ) و(تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ)؛ للجمع بين وظيفتي التَّعَلُّم والتعليم، والصلاح والإصلاح، إذْ بذلك يكون التدارس لآيات القرآن العظيم، بما هي علامات دالة على الله، وراسمة لطريق التعرف إليه جل وعلا، في الأنفس والآفاق. وتلك هي السبيل الأساس للربانية، كما هو واضح من دلالة الحصر المستفادة من الاستدراك في الآية: (ولكن كونوا ربانيين).

مفهوم القرآن

ولنسأل الآن: ما القرآن؟

ما هذا الكتاب الذي هز العالم كله؛ بل الكون كله؟

أجمع العلماء في تعريفهم للقرآن على أنه (كلام الله)، واختلفوا بعد ذلك في خصائص التعريف ولوازمه، ولا نقول في ذلك إلا بما قال به أهل الحق من السلف الصالح. وإنما المهم عندنا الآن ههنا بيان هذا الأصل المجمع عليه بين المسلمين: (القرآن كلام الله). هذه حقيقة عظمى، ولكن لو تدبرت قليلا..

الله جل جلاله خالق الكون كله.. هل تستطيع أن تستوعب بخيالك امتداد هذا الكون في الآفاق؟.. طبعا لا أحد له القدرة على ذلك إلا خالق الكون سبحانه وتعالى. فالامتداد الذي ينتشر عبر الكون مجهول الحدود، مستحيل الحصر على العقل البشري المحدود. هذه الأرض وأسرارها، وتلك الفضاءات وطبقاتها، وتلك النجوم والكواكب وأفلاكها، وتلك السماء وأبراجها، ثم تلك السماوات السبع وأطباقها... إنه لضرب في غيب

رهيب لا تحصره ولا ملايين السنوات الضوئية. أين أنت الآن؟ اسأل نفسك.. أنت هنا في ذرة صغيرة جدا، تائهة في فضاء السماء الدنيا: الأرض. وربك الذي خلقك، وخلق كل شيء؛ هو محيط بكل شيء قدرة وعلما.. هذا الرب الجليل العظيم، قدَّر برحمته أن يكلمك أنت، أيها الإنسان؛ فكلمك بالقرآن.. كلام الله رب العالمين. أوَ تدري ما تسمع؟ الله ذو الجلال رب الكون يكلمك (فاستَمِعْ لِمَا يُوحَى). أي وجدان، وأي قلب؛ يتدبر هذه الحقيقة العظمى فلا يخر ساجدا لله الواحد القهار رغبا ورهبا؟ اللهم إلا إذا كان صخرا أو حجرا. كيف؛ وها الصخر والحجر من أخشع الخلق لله؟ (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(الحشر:21) وهي أمثال حقيقة لا مجاز، ألم تقرأ قول الله تعالى في حق داود عليه السلام: (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ)(سورة ص:19-18)، وقوله تعالى: (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)(الأعراف:143).

كلام الله هو كلام رب الكون، وإذا تكلم سبحانه تكلم من عَلُ: أي من فوق؛ لأنه العلي العظيم سبحانه وتعالى، فوق كل شيء، محيط بكل شيء؛ علما وقدرة. إنه رب الكون.. فتدبر: (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)(فصلت:54). ومن هنا جاء القرآن محيطا بالكون كله، متحدثا عن كثير من عجائبه. قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)(الواقعة:75-82). سبحانك ربنا ولا بأي من آياتك نكذب.

ذلك هو القرآن.. كلام من أحاط بمواقع النجوم؛ خلقا، وأمرا، وعلما، وقدرة، وإبداعا. فجاء كتابه بثقل ذلك كله، أنزله على محمدε، من بعدما هيأه لذلك، وصنعه على عينه سبحانه جل وعلا، فقال له: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)(المزمل:5). ومن هنا لما كذب الكفار بالقرآن، نعى الله عليهم ضآلة تفكيرهم، وقصور إدراكهم، وضعف بصرهم، عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب، فقال تعالى: (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا

رَّحِيمًا)(الفرقان:5-6). وإنه لرد عميق جدا. ومن هنا جاء متحدثا عن كثير من السر في السماوات والأرض. قال عز وجل: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ. وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)(الكهف:54). وقال: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ. أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)(فصلت:53-54).

فليس عجبا أن يكون تالي القرآن متصلا ببحر الغيب، ومأجورا بميزان الغيب، بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، والحرف إنما هو وحدة صوتية لا معنى لها في اللغة، نعم في اللغة، أما في القرآن فالحرف له معنى، ليس بالمعنى الباطني المنحرف، ولكن بالمعنى الرباني المستقيم. أوَ ليس هذا الحرف القرآني قد تكلم به الله؟ إذن؛ يكفيه ذلك دلالة وأي دلالة. ويكفيه ذلك عظمة وأي عظمة. فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: قال رَسُول اللَّهِε: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)([8]).

ولذلك كان لقارئ القرآن ما وعده الله إياه، من رفيع المنازل في الجنان العالية، وما أسبغ عليه من حلل الجمال. قال رسول اللهε: (يقال لصاحب القرآن : اقرأ وَارْقَ! ورَتِّلْ كما كنت ترتل في دار الدنيا! فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها!)([9]) وقال أيضا: (يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب، حَلِّهِ! فيُلْبَسُ تاجَ الكرامة، ثم يقول: يا رب زِدْهُ! فيُلْبَسُ حُلَّةَ الكرامة، ثم يقول: يا رب اِرْضَ عنه! فيرضى عنه، فيقول: اِقرأ، وَارْقَ! ويُزَادُ بكل آية حسنة!)([10]) (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)(الجمعة:4).

إنه تعالى تكلم، وهو سبحانه وتعالى متكلم، سميع، بصير، عليم، خبير، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، نثبتها كما أثبتها السلف، بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه. لقد

---

8 رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح. انظر سنن الترمذي، (كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر). كما رواه الحاكم أيضا في المستدرك.

9 رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:8122.

10 رواه الترمذي والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير:8030

تكلم عز وجل، وكان القرآن من كلامه الذي خص به هذه الأمة المشرفة، أمة محمد عليه الصلاة والسلام. فكان صلة بين العباد وربهم، صلة متينة، مثل الحبل الممدود من السماء إلى الأرض، طرفه الأعلى بيد الله، وطرفه الأدنى بيد من أخذ به من الصالحين.

قال عليه الصلاة والسلام في خصوص هذا المعنى، من حديث سبق: (كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)([11]) وقال في مثل ذلك أيضا: (أبشروا.. فإن هذا القرآن طرفه بيد الله و طرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، و لن تضلوا بعده أبدا)([12]). وروي بصيغة أخرى صحيحة أيضا فيها زيادة ألطف، قالع: (أبشروا.. أبشروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا : بلى، قال : فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا!)([13])

هي الرسالة وصلت من رب العالمين إليك أيها الإنسان، فاحذر أن تظنك غير معني بها في خاصة نفسك، أو أنك واحد من ملايير البشر، لا يُدْرَى لك موقع من بينهم، كلا! كلا! إنه خطاب رب الكون، فيه كل خصائص الكلام الرباني، من كمال وجلال، أعني أن الله يخاطب به الكل والجزء في وقت واحد، ويحصي شعور الفرد والجماعة في وقت واحد، (قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ. وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ. وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(آل عمران:29) سبحانه جل جلاله، لا يشغله هذا عن ذاك، وإلا فما معنى الربوبية وكمالها؟ تماما كما أنه قدير على إجابة كل داع، وكل مستغيث، من جميع أصناف الخلق، فوق الأرض وتحت الأرض، وفي لجج البحر، وتحت طبقاته، وفي مدارات السماء... إلخ. كل ذلك في وقت واحد - وهو تعالى فوق الزمان والمكان - لا يشغله شيء عن شيء، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فبذلك المنطق نفسه أنت إذ تقرأ القرآن تجد أنه يخاطبك أنت بالذات، وكأنه لا يخاطب أحدا سواك. احذر أن تخطئ هذا المعنى.. تذكر أنه كلام الله، وتدبر.. ثم أبصر!

---

11 سبق تخريجه.

12 رواه الطبراني بإسناد صحيح. وهو في صحيح الجامع الصغير: 34

13 سبق تخريجه.

قـال جـل جلالـه: (أَفَـلَا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ أَمْ عَلَـى قُلُـوبٍ أَقْفَالُهَـا)(محمد:24)، (أَفَـلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا)(النساء:82).. فتدبر!

ذلك هو القرآن: الكتاب الكوني العظيم، اقرأه وتدبر، فوراء كل كلمة منه حكمة بالغة، وسر من أسرار السماوات والأرض، وحقيقة من حقائق الحياة والمصير، ومفتاح من مفاتيح نفسك السائرة كرها نحو نهايتها. فتدبر.. إن فيه كل ما تريد. ألست تريد أن تكون من أهل الله؟ إذن؛ عليك بالقرآن، اجعله صاحبك ورفيقك طول حياتك؛ تكن من (أهل الله) كما في التعبير النبوي الصحيح. قال عليه الصلاة والسلام: (إن لله تعالى أهلين من الناس: أهل القرآن هم أهل الله، وخاصته)([14]).

« مَجَالِسُ القرآنِ » مِفْتَاحُ الْمَشْرُوع

منهجُ تَدَارُسِ القرآن **بِمَجَالِسِ القرآن** كان لذلك الزمان، وهو لهذا الزمان، منهجٌ دائمٌ متجدد، لا يبلى ولا يتقادم أبدا! لأنه ببساطة هو نفسُه منهج القرآن! بلا زيادة ولا نقصان! كما سترى بحول الله، وإنما القرآن كلام الحق جل علاه! وكفى بالقرآن منهجاً لمن كان على نور من ربه! (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ. تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)(الزمر:23).

هذا مشروع (مجَالِس القرآن): مدرسة شعبية لنشر ثقافة القرآن، وبناء أخلاق القرآن، ودعوةٌ لتداول القرآن في السلوك الفردي والاجتماعي، من خلال الإقبال العام الشعبي على تعلم القرآن، وتدارس القرآن، وفتح **(صالونات القرآن)** داخل الأسر، وبين الأصحاب؛ لتقديم كؤوس الذِّكْرِ للأهل والأحباب والأقارب والجيران! ولا أحلى ولا ألذ من موائد القرآن، ومجالس التدارس الميسَّر لسوره وآياته بين يدي الرحمن!

مشروع (صالونات القرآن) أو (مجالس القرآن): مسلكٌ تربوي مبَسَّط؛ لسلوك طريق النور؛ قصد التعرف إلى الله! مشروعٌ ليس لنا فيه من الاجتهاد إلا الجمع والترتيب، ومراعاة

[14] رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:2165.

التنزيل في واقع جديد! نأخذه كما هو من القرآن والسنة النبوية. مشروعٌ لا مِنَّةَ فيه لأحد، إلا لله! ولا فضل فيه لمبدع أو مخترع، وإنما هو كلام الله! ولا انتماء فيه لقائد أو رائد، ولا لتنظيم أو جماعة! بل هو انتساب تعبدي لله! غايته أن نسعى جميعا – أنا وأنت، ومن شرح اللهُ صدرَه للقرآن – للاستظلال بحقيقة مُسَمَّى: (عبد الله)!

هذا القرآن المجيد أمامك الآن! فابحث فيه عن نفسك؛ تجدها مشاركة في بناء (مَجَالِسِ القرآن)! إنه إذن؛ مشروعٌ لا مِلْكِيَّةَ فيه لأحد، ولا يخضع لأي (مَارْكَة مسجَّلَة)؛ وإنما هو يتوسم (صِبْغَةَ اللَّهِ. وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)!؟(البقرة:138)

دع عنك يا صاحبي الأشكال والألقاب جانبا! ولنطرق باب الله متذللين متواضعين!

(مجالسُ القرآن) منهج تربوي أسَّسَهُ محمدٌ رسول اللهε، وانخرط فيه أصحابه عليهم رضوان الله، واستمروا به بعد موتهε؛ مدرسةً تربويةً تُخَرِّجُ أفواجَ التابعين! ولم يزل بعد ذلك نموذجا مقصودا – عبر التاريخ – للعلماء العاملين، وللمجددين الربانيين!

(مجالسُ القرآن) عَرْضٌ متجدد لموائد الروح! فهذا القرآن العظيم أمامك الآن! هذا كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه! هذا نور الوحي، وطريق الهدى! فاقرأ وافْقَهْ عن الله! فهذه السور والآيات تخاطبك أنت بالذات! أنت، نَعَم أنت! إنها – إن أنْصَتَّ بصدق – تخاطبك الآن في زمانك هذا، وفي ظروفك هذه! (فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)(طه:13)! استمع إن كنت من المؤمنين بالله حقا، الراغبين في التلقي عنه تعالى صِدْقاً!

(مجالسُ القرآن) مشروع ننطلق فيه – كعادتنا – (**من القرآن إلى العمران**)! ولنا اليقين أنه منهج كافٍ إن شاء الله – إذا أُخِذَ بشروطه وضوابطه – لبناء النفس المؤمنة في هذا العصر الجديد، وإعادة تشكيلها تربيةً وتزكيةً، ثم بناء النسيج الاجتماعي الإسلامي حضارةً وعمرانا! وتلك ليست دعوى ندعيها، ولا تمنٍ نتمناه على غير هُدَى، كلا! وإنما هو منطوق القرآن الحكيم، وحقيقته العمرانية الشاهدة، كما هي في نصه، وكما جرَّبها الإنسانُ مرارا في التاريخ! وذلك ببساطة؛ لأن القرآن إذا فُعِّلَ في المجتمع صار مُحَرِّكاً يشتغل بنفسه! ومعملا مبرمجا من عند الله، يشتغل بصورة تلقائية؛ لتخريج الأجيال وصناعة الأنفس على عين الله ووَحْيِه!

فـ(مجالسُ القرآن) مشروع دعوي تربوي بسيط، سهل التنفيذ والتطبيق، سلسل الانتشار؛ غايته تجديد الدين، وإعادة بناء مفاهيمه في النفس وفي المجتمع!.. بعيدا عن جدل (المتكلمين الجدد)، وبعيدا عن تعقيدات التنظيمات والهيآت!.. بعيدا عن الانتماءات السياسية الضيقة، والتصنيفات الحزبية المُرْبِكَة!

لكن؛ قريبا من فضاء القرآن الكريم، بل في بحر جماله النوراني العظيم! وتحت شلال روحه الرباني الكريم!

وانطلاقا من حلقات المدارسات، وصفوف الصلوات، وحصون المساجد وأفلاك الأوقات؛ سيرا إلى الله وحده دون سواه، مخلصين له الدين، راغبين راهبين؛ حتى يأتينا اليقين!

وللدخول في فضاء (مجالس القرآن) طريقتان أو صورتان، يمكن اعتماد إحداهما أو الجمع بينهما معاً، وهو أفضل:

فأما الأولى فهي صورة **(مجالس القرآن الأسرية)** وتقوم على تأسيس المجلس داخل الأسرة الواحدة. فأنتما أيها الزوجان أو الأبوان، عندما تختل موازين الحياة بينكما داخل البيت، وتضطرب شؤونه، ولا يستقيم بناؤه، فلا تصفو المودة، ولا تخلص المحبة! فهذه وَصْفَةُ الإيمان جاهزة من صيدلية الرحمن؛ دواء كامل، وشفاء شامل لا يغادر سقما: القرآن! نعم القرآن. فهل فكرتما في وَصْفَةِ القرآن؟ إن تِرْيَاقَ القرآن - للجسم الأُسري خاصة - لا يكون بمنهج التلاوة التبركية فقط، بل يكون أساسا بمنهج التدارس والتدبر الجماعي، كما سنبينه بعدُ بحول الله. عندما يجتمع الزوجان على آيات بينات من كتاب الله؛ تلاوةً وتدارسا وتدبرا؛ فمعنى ذلك أن القلوب قد انفتحت للتلقي عن الله! واستعدت أتم الاستعداد؛ لإعادة ترتيب الوجدان على موازين القرآن ومفاهيم القرآن؛ فإذا بالنور ينزل ليطهر الخواطر من وساوس الشيطان، ويطرد الغشاوة التضليلية عن الأبصار والبصائر، ويعيد بناء الثقة بين الزوجين، على أحسن مما كانت عليه في أي وقت مضى بإطلاق! وجرب تَرَ النتيجة بعينك إن شاء الله!

قبل هذا وذاك (مجالس القرآن الأسرية) هي لبناء الأسرة على مفاهيم الإسلام، وتكوين الأبناء بمختلف أعمارهم على مواجيد الإيمان، وقيم الدين، والتخلق بجماله وأنواره. إن التربية القائمة على منهج القرآن لهي أيسر الوسائل التربوية، وأضمنها للوصول بالأبوين أنفسهما والأبناء معهما - داخل الأسرة الواحدة - إلى الاستفادة الفعلية من مقاصد القرآن

العالية، والتخلق بأخلاقه الراقية! ذلك أن القرآن يربي النفس بصورة تلقائية، لا كلفة فيها ولا تعقيد! بشرط أن يقود الأبوان أنفسُهُما إدارةَ (مجلس القرآن) داخل البيت. فإذن؛ يحصدان نتائج الخير والبركة بإذن الله، بما لا يخطر لهما على بال! لأن ذلك - ببساطة - هو (منهج الفطرة)، حيث تنبت القيم والحقائق الإيمانية في أعماق الأنفس؛ تماما كما ينبت الزرع في الحقل! وتدبَّرْ حديثَ رسول اللهε عن أهمية حضور الأبوين في العملية التربوية. قال عليه الصلاة والسلام: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه!)[15] ومعلوم أن الإسلام هو دين الفطرة، وأن القرآن هو ديوان الفطرة! ومن هنا فليس أقدر من كتاب الله تعالى على بناء الأنفس والمجتمعات على الفطرة، أو إعادة بنائها على موازينها، أو ترميمها؛ إذا كان قد حصل فيها انحراف أو ضلال!

وما كان أصحاب رسول اللهε يجعلون أبناءهم وأهليهم بمعزل عن القرآن، بل كانوا يحضرونهم مجالسَه، ويشركونهم موائدَه، ويعيشون معهم لحظات استدرار أنواره، وأوقات التعرض لأسراره. فهذا الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه (كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم!)[16]

وكم من أبٍ، أو أمٍّ تعبت وراء السراب؛ بحثاً عن منهج قويم لتربية الأبناء والبنات، فتستغرق ما شاء الله من الأيام، في المطالعات للكتب التربوية، والمتابعات للبرامج التلفزيونية والإعلامية، مسائلةً هذا العالم أو ذاك، وقاصدةً الأخصائيين هنا أو هناك؛ للحصول على وصفة تداوي بها انحراف أبنائها وتمرد بناتها، أو تعنت زوجها، وقسوة حماتها... إلخ! حتى إذا قيل لها ما قيل، وكانت النظريات ذات اصطلاح أنيق، والكلمات ذات ألوان وبريق؛ أخذتها فرحة مسرورة كأنما عثرت على كنز ثمين، لكنها عندما تشرع في التطبيق والتجريب لا تجد من مفهوم التربية فيها إلا السراب! وإنما هي كلمات جوفاء، ونظريات خرقاء! لا تسمن ولا تغني من جوع!

---

15 متفق عليه.

16 أورده الهيثمي بمجمع الزوائد في (باب الدعاء عند ختم القرآن) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. مجمع الزوائد: الحديث رقم: 11713.

وعجبا لمن يطلب العلاج النفسي، والحل الاجتماعي، في أقصى الدنيا وأبعد الحدود؛ وهذا الشفاء الرباني أقرب إليه من حبل الوريد! القرآن! فهل عرفت — حقيقة – ما معنى القرآن؟ هل حاولت اكتشاف عالم القرآن؟ ذلك هو السؤال الْمُرُّ! الذي يظن أغلب الناس أنهم على قدرة للإجابة عنه بالإيجاب، ولكن أكثرهم – مع الأسف – أبعد ما يكونون عن الصواب!

وليس كتدارس القرآن وتلاوته شيء أنفع وأجدى – في العالم كله – لتمتين العلاقات الزوجية، ورعاية الطفولة، وتربية الشباب! وإن بيتا يُتَدارَسُ فيه القرآن ويتلى؛ لَهُوَ بيتٌ لا يسكنه الشيطان أبدا! ولذلك بيانٌ سهلٌ بسيطٌ في هذه الورقات، يأتي بحول الله.

وأما الصورة الثانية من صور الدخول إلى فضاء القرآن؛ فهي صورة: **(صالونات القرآن)**. ونقصد بذلك فتح صالون البيت للأحباب والأصحاب؛ من أجل الغاية نفسها، وهي تدارس القرآن الكريم، وتدبره، والإنصات إلى حقائقه وحِكَمِه([17]). وهذا أفضل ما يجتمع عليه الناس من الخير؛ لأن به تتكون الشخصية الإسلامية المتماسكة على المستويين: النفسي والاجتماعي، وبه يحصل (التعارف) بمعناه القرآني الذي يبني الثقة بين الناس؛ قصد التواصل العمراني، وربط العلاقات الاجتماعية، القائمة على التعاطف والتواد والتراحم، مما يعطي للحياة داخل المجتمع الإسلامي معنى جميلا. وهو ما بينه رسول اللهε في الحديث النبوي المشهور: (مَثَلُ المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم؛ مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائر الجسد بالسَّهَرِ والْحُمَّى!)([18]) وما ذاك إلا لِمَا حصل بينهم من (التعارف) على الخير. فـ(التعارف) الذي هو أحد مقومات المجتمع الإسلامي الأساسية، هو منبع وجود (المعروف) الذي هو ضد (المنكر)! ومن هنا قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(الحجرات:13). فـ(التعارف) – بهذا المعنى – وسيلة هامة جدا لبناء التقوى والصلاح داخل المجتمع، بما يتيحه من التنافس في البِر، والتعاون على التقوى.

---

[17] لصالونات القرآن أشكال فرعية أخرى، وصور تندرج ضمنها، سنعرض لها بحول الله في أواخر هذه الرسالة.

[18] متفق عليه.

وأساس ذلك كله إنما هو هذا المفهوم الإسلامي الأصيل؛ لبناء الأخوة الاجتماعية في الإسلام، ألا وهو: (المحبة في الله)! ونظرا لأهمية هذا المعنى في تقوية النسيج الاجتماعي بين الناس؛ فقد حرص الرسولε على بيان أثره الكبير في ميزان الإيمان والحسنات! على نحو ما حكاه عليه الصلاة والسلام في قصة المحبة، قالε: (خَرَجَ رَجُلٌ يزور أخاً له في الله عز وجل، في قرية أخرى، فَأَرْصَدَ الله عز وجل بِمَدْرَجَتِهِ [أي: بطريقه] مَلَكاً، فلما مَرَّ به قال: أين تريد؟ قال: أريد فلانا، قال: لِقَرابَةٍ؟ قال: لا! قال: فلِنِعْمَةٍ له عندك تَرُبُّهَا؟ قال: لا! قال: فَلِمَ تأتيه؟ قال: إني أحبه في الله! قال: فإني رسولُ الله إليك! إنه يحبك بحبك إياه فيه!)[19]. وفي رواية مسلم: (قال: فإني رسول الله إليك: بأن الله قد أحبَّكَ كما أحببتَه فيه!) ومن هنا جعل الله المتحابين فيه تعالى تحت ظله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظلُّهُ جلَّ جلالُه! وهو ما نصَّ عليه النبي في قولهε: (سبعةٌ يظلهم الله في ظِلِّه، يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: الإمامُ العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه، ورَجُلٌ قلبُه معلَّقٌ في المساجد، ورَجُلان تَحَابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقَا عليه، ورجُلٌ طلبته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمال؛ فقال: إني أخاف الله! ورَجُلٌ تصدق بصدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شِمالُه ما تنفق يمينُه، ورجلٌ ذَكَرَ الله خالياً؛ ففاضت عيناه!)[20].

في هذا الصنف الرباني الرفيع من العباد إذن؛ يَسْلُكُ رسول اللهε المتحابين في الله. وما ذاك إلا لِمَا لهذه المحبة من الإخلاص، ولِمَا فيها من الصدق!

وإنما موائد القرآن المقدَّمة في (صالونات القرآن)، هي الكفيلة – في هذا العصر بشكل خاص – بتغذية روح التعاطف والتراحم بين المسلمين، وتمتين عمران المحبة العالي! بصورة متفردة عجيبة؛ للفوز بأفضل المنازل الإيمانية، وأجمل المعاني الروحانية!

إن مجالس القرآن – بما تصنعه من أخوة صادقة، ومحبة عالية بين الجُلَسَاءِ – لَتُشَكِّلُ شبكةً روحية ذات خطوط عمودية وأخرى أفقية. تتواصل بانسجام فيما بينها أفقيا، على المستوى الاجتماعي – من جهة – على أدق وألطف ما يكون الانسجام! وتَمْتَدُّ – من جهة أخرى – إلى أعلى عموديا نحو السماء! موصولة القلوب بحبل الله من المدد الروحي، المتنزل عليها من لدنه تعالى؛ ذِكْراً في الملأ الأعلى، ورعايةً في الأرض! وتأمَّلْ صورَ هذه الأحاديثِ

---

19 رواه مسلم، وابن حبان، وأحمد واللفظ له.

20 متفق عليه.

التاليةِ تَرَ عجبا! تَرَ كيف يصوغ القرآن المجيدُ شبكةَ الروح الممتدة من المجتمع الإنساني إلى الله رب العالمين! قال رسول اللهε: (كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض!)([21]) وقال في مثل ذلك أيضا: (أبشروا.. فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به! فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبدا..!)([22]) وروي بصيغة أخرى صحيحة أيضا فيها زيادة ألطف، قالε: (أبشروا..! أبشروا..! أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به! فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا!)([23]) فلا ضلال إذن؛ بما وَضَحَ من الطريق السالكة إلى الله! ولا هَلَكَةَ بما تَمَتَّنَ من نسيج الأمة وتَقَوَّى من عضدها! وما غير منهاج القرآن العظيم بذلك كفيل؟!

لكن لابد من بيان أن القرآن لا يشتغل حقيقةً؛ إلا إذا تحرك به قلب العبد المؤمن! نعم! واشتعل له وجدانُه! وتهيأ كيانُه كلُّه للاشتعال! فالمعاناة الإيمانية النابعة من صدق الإقبال على الله، وشدة الافتقار إليه تعالى؛ هي وحدها الكفيلة بتهيئة النفس وتصفيتها؛ حتى تصلح مرآتها لتعكس أنوار حقائق الإيمان، الكامنة في القرآن، وتستدر أسرار العرفان المكتنزة فيه! إنها هي وحدها تتيح للعبد الصادق تفجير زناد القرآن، وإشعال زيته الوقاد! ذلك أن الله جعل قلب العبد المؤمن هو المحرِّك الذي يُشَغِّلُ قاطرة الإيمان، ولا حركة إلا بِمُحَرِّك! فكيف ينطلق النور؟ وكيف يتوهج القرآن؟ وهذا القلب جامد هامد، لا تهب به رياح الأشواق؟

وعليه؛ فإن (مجالس القرآن)؛ بما تتضمنه من أسرار هذا المنهج، وبما تتيحه من تهييج الشوق إلى الله، وإكْسَابِ القلبِ هذه الصفةَ الحركيةَ الوجدانية، صفةً ذاتيةً ومهارةً حيويةً؛ تجعل (الجُلَسَاءَ) الْمُتَحَلِّقِينَ بها أشْبَهَ – فعلا – ما يكونون بالسُّرُجِ والْمَصَابيحِ المعلقة في السماء! تشع بالنور وهي تدور بأفلاكها سيراً إلى الله.. وذلك بما يَنْقَدِحُ في قلوبهم من نور

---

21 سبق تخريجه.

22 رواه الطبراني بإسناد صحيح. وهو في صحيح الجامع الصغير: 34

23 سبق تخريجه.

الإيمان! وأسرار القرآن! واقرأ إن شئت – على هذا الوِزَان – آية النور من سورة النور! وإنها لآيةٌ وأيُّ آية! فأبْصِرْ ..!

– (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ. يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ. وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.)(النور:35)

فالآية مَثَلٌ ضربه الله جل جلاله للقرآن في قلب العبد المؤمن عندما يتوهج إيمانه، ويَتَّقِدُ وجدانه؛ بما يتدفق عليه من زيت القرآن وهو آياته البينات! فذلك: نورٌ على نور! فالمشكاة: هي صدر المؤمن. والمصباح هو: القرآن. والزجاجة هي: قلب المؤمن. فكلما اشتغل العبد بِوَارِدِ القرآن تَوَهَّجَ الإيمان بقلبه واشتعل؛ فتدفق منه النور! فهو لذلك كالكوكب الدُّرِّيّ النابضِ بالحسن والجمال في علياء السماء! فإلى نحو هذا المعنى ذهب الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله في تفسير الآية؛ نقلا عن عدد من سلف الصحابة والتابعين، منهم أُبَيّ بن كعب، وابن عباس رضي الله عنهما([24])

وإذا أردت أن تشاهد كيف يفيض نورُ الله على عباده وأوليائه؛ فشاهِدْ قولَ الله جل وعلا: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ!) وتَدَبَّرْ أبعادها الكونيةَ العظمى! ثم تابِعْ مشاهدَ الآية بَعْدُ مُتَسَلْسِلَةً من خلال حديث رسول اللهε كما صح عنه عليه الصلاة والسلام في حديثٍ صحيحٍ مليحٍ، تُشَدُّ إليه الرِّحالُ! شعاع من نور الله، يرويه عن رسول الله؛ الصحابيُّ الجليلُ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه.. والله ما أحب أن لي به الدنيا وما فيها..! قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: (قَامَ فينا رسولُ اللهε بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فقال: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ! ولاَ يَنْبَغِي لَهُ أنْ يَنَامَ! يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ. يُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ! حِجَابُهُ النُّورُ!.. لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ!**)([25]) وأيُّ شيءٍ من خَلْقِهِ لا يَنْتَهي إليه بَصَرُهُ ؟!.. ألاَ سبحانه! سبحانه! والسُّبُحَاتُ: هي بهاءُ النورِ وفَيْضُ الحُسْنِ، من الجمال

---

24 جامع البيان: 140/18. نشر دار الفكر، بيروت: 1405هـ.

25 رواه مسلم.

والجلال المتجلي عن ذاته جلَّ جلالُه![26] فسبحانه وتعالى من ربٍّ عظيم! هو النور وحجابه النور!

فعندما يجتمع الجُلَسَاءُ متحلقين بمجالس القرآن، ويشرعون في الاشتغال بكتاب الله جل علاه؛ فإنما هم في الحقيقة يَصِلُونَ أرواحَهم بحبل الله النوراني مباشرةً، ويربطون مصابيح قلوبهم بمصدر النور الأكبر! فإذا بهم يستنيرون بصورة تلقائية، وبقوة لا نظير لها! وذلك بما اقتبسوا من نور الله العظيم! وإذا بهم يترقون بِمَعَارِجِ القرآن ومَدارِجِه إلى مشاهدة حقائق الإيمان، مشاهدةً لا يُضَامُونَ فيها شيئاً! وما كان للزجاج البلوري إذا أشرقت عليه أنوار الحقائق القرآنية إلا أن يكون مُشِعّاً! وذلك هو مَثَلُ أهل الخير المصلحين في الأرض، وَرَثَةِ الأنبياء من الربانيين والصِّدِّيقين!

فَلَكَ أن تقول إذن: إن مجالس القرآن وصالوناته – بما ذكرنا لها من إمكانات وخصائص – هي مدارسُ لتخريج مصابيح القرآن في الأمة!

فمن هنا إذن؛ **نشرع في بناء عمارة الروح بتصميم (مجالس القرآن)؛ من أجل تجديد الإيمان، وتصفية الوجدان، والسير إلى الله عبر أخصر طريق وأقربه! ومن أجْلِ تداولٍ اجتماعيٍّ للقرآن العظيم، والتزامٍ اجتماعي شامل؛ للمعلوم من مواثيق الدين بالضرورة!** عسى أن نسهم في بناء نهضة إسلامية عَمَلِيَّةٍ شاملة، بإذن الله! ما نرى إلا أن إبَّانَها الحضاري قد آن، وأنَّ موسمها الكوني قد حَلَّ بعالم الإنسان! فهذه آمالُها القديمةُ تتمخض اليوم بالفعل لا بالتخمين، عبر آلام كل العالم الإسلامي، تنبت بالبشرى في كل مكان!

بقيت مسألة واحدة، قد تكون مدخلا للشيطان – نعوذ بالله السميع العليم منه – فيثبط النفس ويثقلها عن المبادرة إلى إنشاء مجالس القرآن! وذلك أنه ربما يتسلل إلى الخاطر عبر هذا السؤال: من له الأهلية لبناء مجلس قرآني؟ وسرعان ما تتوجه أصابع الاتهام إلى النفس: أنا لست أهلا؛ وإذن فلننتظر المهدي! ومن هنا فإننا نقول: نعم، العلماء الربانيون أولا، هم أولى بهذا المشروع من غيرهم، ولكن ليس وحدهم! بل بعدهم يأتي أهل الخبرة التربوية من الربانيين! وربما كان من هؤلاء من فاق أولئك! خاصة وأن المشروع يشتغل بالمعلوم

---

[26] شرح النووي على صحيح مسلم: 14/3

من الدين بالضرورة، وليس موضوعا لتخريج الفقهاء والمفتين، فذلك له ميدان آخر غير ما نحن فيه، وإنما مجالس القرآن مجال للصناعة التربوية أساسا.

ثم بعد هؤلاء وأولئك يأتي أهل الصلاح ومحبي الإصلاح من المسلمين عموما. وذلك بناء على يقين حصلناه بالمشاهدة والتجربة: **وهو أن هذا المشروع يصنع أساتِذَتَه!** وهذا سِرٌّ من أسرار القرآن العجيبة! إن مدارسة القرآن العظيم بما هي تعبد محض، وسير قلبي إلى الله؛ إذا أقبل عليها العبد بإخلاص حقيقي فاضت عليه أنوار القرآن وحِكْمَتُه! وكان من شأنه ما كان، من تجليات الروح، وتحصيل التزكية والحِكْمَةِ الربانية، بصورة تلقائية ذاتية! كما سترى مفصلاً بأدلته بَعْدُ بحول الله! وتلك لعمري هي أهم خصائص الربانيين، الموكول إليهم تربية الخلق بهذه الأمة! وإنَّ من أسرار الإعجاز في هذا الدين، واستمرار انبعاثه إلى يوم الدين؛ أنَّ تجديده متعلق بسِرٍّ إلهي، يتمثل في فعل من أفعال الله تبارك اسمه، إذ يتجلى على بعض عباده من نور إرادته وقدرته، ألا وهو: (البعث)! فتجديد الدين لا يكون إلا (بعثا)، وإنما (البعث) فعلٌ من قدرة الله وإرادته، لا من فعل الإنسان، وإنما الإنسان فيه مستجيب لإرادة الله! فتَدَبَّرْ بِتَأَنٍّ كبيرٍ الحديثَ النبوي المشهور، حيث قالε: (إن الله تعالى **يبعث** لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة **من يجدد** لها دينها)([27]). وقد جرت العادة أن الناس اليوم ينتبهون أكثر إلى فعل (التجديد)، الذي فاعله هو الإنسان، وقلَّما ينتبهون إلى فعل (البعث)، الذي فاعله هو الله جل جلالُه! وإنما ذلك ناتج عن هذا، والعكس غير صحيح! فلا تجديد إلا ببعث!

والله جل وعلا بين لنا كيف **يبعث روح التجديد** في النفوس، ببيانات واضحة من كتاب الله وسنة رسول اللهε. **وإنما ذلك الروح هو: القرآن!** فمن أقبل عليه بصدق كان من أهل الله وخاصته! كما سترى بحول الله. فإن لم يكن عالما كان حكيما. (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا! وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ!)(البقرة:269)

---

[27] رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة، عن أبي هريرة مرفوعا. وصححه الألباني، رقم: 1874 في صحيح الجامع.

فيا من تبحث مثلي عن طريق الله! برنامجُك العملي وميثاقُك الدعوي؛ كتاب واحد، لا ثاني له: هو القرآن العظيم! وشيخُك الراعي وأستاذك الداعي؛ مُرَبٍّ واحدٌ لا نظير له: هو من (كان خُلُقُهُ القرآن)[28] محمد رسول اللهε! وأما مَقَرُّك الحركي، ومنطلقك (الاستراتيجي) فمكان واحد لا بديل له: هو بيت الله! فاطرق باب المسجد تَجِدْ وجهَ الله! وادخل فضاءَ القرآن تَسْمَعْ كلامَ الله!

---

28 رواه مسلم.

جُلسَاءُ المَلائِكَة !

(الجُلَسَاءُ): جمع (جَلِيس)، وهو الشخص الذي يجلس إليك في مجلس واحد؛ بقصد الاجتماع على حديث ما أو فعل ما. ولذلك قال الشاعر:

وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ!

تلك حكمة قيلت بالنسبة لأي كتاب. فما بالك إذن بمجلس يكون فيه كتاب الله – جل ثناؤه – هو جليسك! ثم ما بالك بمجلس يكون فيه " أهل الله وخاصته" هم جلساءك! ثم ما بالك به - بعد هذا وذاك – إذا كان الملائكةُ هم زواره وحُضَّاره!

لا شك أن ذلك مجلس تشد إليه الرحال، وتقطع في سبيله المسافات والأميال! لأنما هو مجلس يتضوع منه مِسْكُ الروح؛ بِمَا حضره من أهل الله وملائكته! وبِمَا تَنَزَّلَ عليه من رحمته وبركاته..! وإنَّ قوماً من بني آدم يحضرون مجلساً تشهده الملائكةُ هم في الحقيقة (جُلَسَاءُ الْمَلائِكَةِ)! ومَنْ جَالَسَ قوما فهو منهم! وما أجمل تعبير النبيε في مَثَلٍ ضَرَبَهُ لجلساء الخير وجلساء الشر، قالε: (إنما مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المِسْكِ ونافخ الكير، حاملُ المسك إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة! ونافخُ الكير إما أن يحرق ثيابَك، وإما أن تجد ريحا خبيثة!)([29]) ولَمَجْلِسٌ يجتمع فيه الناس على القرآن خيرٌ من الدنيا وما فيها! كما سترى بحول الله. فأبشروا (جُلَساءَ الملائكةِ) بالخيرات والبركات!

ومن هنا؛ كانت (مجالس القرآن) هي خير أنواع (مجالس الذكر)، التي تضافرت الأدلة من كتاب الله وسنة رسول اللهε على أنها محبوبة عند الله، مذكورة في ملئه الأعلى، تشهدها الملائكة، وتنزل عليها السكينة، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله في من عنده. وليس شيءٌ أفيدَ منها في تربية الإنسان المسلم على الصلاح والفلاح. وهي من أهم الوسائل التربوية التي لا غَبَشَ فيها ولا غبار، من حيث استنادها إلى الأدلة المتواترة بالمعنى، عبر الأحاديث الوفيرة المستفيضة. نذكر منها الحديث المشهور، الذي رواه أبو هريرة مرفوعا إلى النبيε، والذي فيه: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم

---

[29] متفق عليه.

السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه!)([30])

وكذلك الحديث المتفق عليه، الذي رواه أبو هريرة أيضا، مرفوعا إلى النبيε قال: (إن لله ملائكة سياحين في الأرض، فضلا عن كتاب الناس، يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذِّكْر، [وفي رواية مسلم: مجالسَ الذِّكْر] فإذا وجدوا قوما يذكرون الله [وفي رواية مسلم: فإذا وجدوا مَجْلِساً فيه ذِكْرٌ] تنادوا: هلموا إلى حاجاتكم! فَيَحُفُّونَهُمْ بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا. فيقول: فما يسألونني؟ فيقولون: يسألونك الجنة. فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ فيقولون: من النار. فيقول الله: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة. فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم! فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان، ليس منهم، إنما جاء لحاجة! فيقول: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم!)([31])

ولم يزل هذا المنهج هو أساس التربية لدى أصحاب رسول اللهε بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، سواء في تزكية أنفسهم وتذكيرها، أو في تربية الجيل الناشئ من التابعين. فقد (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى [يعني: الأشعري رضي الله عنه]، وهو جالس في المجلس: "يا أبا موسى، ذَكِّرْنا رَبَّنا! يقرأ عنده أبو موسى، وهو جالسٌ في المجلس، ويَتَلاحَنُ!)([32]) والتَّلاحُنُ: التغني بالقرآن والتحبير. وعن أبي رجاء العطاردي رحمه الله، قال متحدثا عن شيخه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (تعلمنا القرآن في هذا المسجد – يعني مسجد البصرة – وكنا نجلِسُ حِلَقاً، حِلَقاً، وكأنما أنظر إليه بين ثوبين

---

30 رواه مسلم

31 متفق عليه.

32 رواه ابن حبان في صحيحه، والدارمي في سننه، وعبد الرزاق في مصنفه.

أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: «اقرأ باسم ربك الذي خلق». قال: وكانت أول سورة أنزلت على محمد ε)([33]). والأحاديث والآثار في هذا المعنى كثير.

فأَسْلُكْ نفسَكَ وصاحبَكَ في مجلس من (مجالس القرآن)، وسِرْ من خلاله إلى الله. فذلك منهج النبيε في تلقين صحابته صفات الصلاح، ومقومات الإصلاح.

تَتَبَّعْ – لبناء النفس وتربيتها – منهج القرآن كما عرضه القرآن! وهو — على الإجمال – ثلاث خطوات قابلة للتفصيل، وهي: التلاوة بمنهج التلقي، والتعلم والتعليم بمنهج التدارس، ثم التزكية بمنهج التَّدَبُّر. فذلك ما ذكره الله – سبحانه وتعالى — بإجمال، عند تحديد وظائف النبوة الثلاث. وهي المذكورة في قوله جل ثناؤه: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)(آل عمران:164) وقوله سبحانه وتعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)(الجمعة:2). وتلك هي استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة، بما ورد في قوله تعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)(البقرة:129).

التلاوة، والتعليم، والتزكية هي الأصول الكلية لمهمة الرسالة، وهي المراحل الأساسية لبناء النفس المؤمنة، وتكوين النسيج الاجتماعي الإسلامي. إلا أنها مراحل متداخلة في عملية الاشتغال بالقرآن الكريم لهذا الغرض، إذ يصعب القول بأنها منقطعة مبتوتة المفاصل، بل هي متواصلة، يكمل آخرُها أولَها، ويرفد أولُها آخرَها؛ إذ تجد بدايات اللاحقة منها منذ الشروع في السابقة، وتجد آثار السابقة مستمرة في اللاحقة! وإنما تتميز عن بعضها بالغلبة ليس إلا. وبيانها كما يلي:

[33] رواه الحاكم، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه).

الخطوة الأولى: تلاوة القرآن بمنهج التلقي

– **فأما الخطوة الأولى فهي التلاوة:** وهي بركة وزكاة في نفسها، فقد ثبت الأجر على كل حرف تتلوه من القرآن الكريم، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: قال رَسُول اللَّهِ ε: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)([34]). ولذلك كان لقارئ القرآن ما وعده الله إياه، من رفيع المنازل في الجنان العالية، وما أسبغ عليه من حُلَلِ الجمال. قال رسول اللهε: (يقال لصاحب القرآن : اقرأ وَارْقَ! ورَتِّلْ كما كنت ترتل في دار الدنيا! فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها!)([35]). فلا تنس هذا.

والله عز وجل أمر بالتلاوة للقرآن في غير ما آية. قال سبحانه: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا)(الكهف:27). وقال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ)(فاطر:29). وقال: (لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)(آل عمران:113). وقال تعالى: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)(المزَّمِّل:4)، ثم قال: (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنَ)(المزمل:20). وفي الحديث الصحيح: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه ويتعتع فيه، وهو عليه شاق؛ له أجران)([36]).

إلا أن التلاوة إنما تكون بما وُصِفَتْ به من البركة والتأثير الإيماني؛ إذا أُخِذَتْ بما أسميناه بـ(منهج التلقي للقرآن العظيم)، حيث يؤخذ القرآن بحضور قلبي، وتُتْلَى آياتُه على أنها **ذِكْرٌ لله** جل جلاله. وبيان ذلك هو كما يلي:

---

[34] رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح. كما رواه الحاكم أيضا في المستدرك.

[35] رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:8122.

[36] متفق عليه.

لا شك أن القرآن العظيم رأس الذِّكْر، ومفتاح الذكر، وتاج الذكر. بل القرآن هو الذكر! قال سبحانه: (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ!)(القلم:51-52).

والقرآن أيضا به يكون الذكر! قال سبحانه: (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)(سورة ص:1). والفتنة حينما يطوف بها الشيطان في كل مكان؛ يعمي بها البصائر، فيحفظ الله الذاكرين! قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ)(الأعراف:201).

الإشكال الآن هو: كيف نُحَصِّل الذكر بالقرآن؟

هذا هو السؤال الأهم الآن؛ لأنه ليس كل قارئ للقرآن هو بذاكر!

تبصرة: في أخذ القرآن بمنهج (التَّلَقِّي)

كثيرون هم أولئك الناس الذين يتلون القرآن اليوم، أو يستمعون له على الإجمال، على أشكال وأغراض مختلفة. ولكن قليل منهم من (يَتَلَقَّى) القرآن!

وإنما يؤتي القرآنُ ثمارَ الذكر حقيقةً لمن تَلَقَّاهُ! وإنما كان رسول الله ε يَتَلَقَّى القرآن من ربه. قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)(النمل:6).

ولا يزال القرآن معروضا لمن يتلقاه، وليس لمن يتلوه فقط!

والتلقي في اللغة: هو الاستقبال عموما. كما في قول الله تعالى: (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)(الأنبياء:103)([37]).

وأما تلقي القرآن: فهو استقبال القلب للوحي. إما على سبيل النبوءة، كما هو الشأن بالنسبة للرسولε. على نحو ما في قول الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)(النمل:6). إذ ألقى الله عليه القرآن بهذا المعنى! كما فسره الراغب الأصفهاني من قوله تعالى: (إنا سَنُلْقِي عليك قولا ثقيلا)(المزمل:5) قال رحمه الله: (إشارة إلى ما حُمِّلَ من النبوة والوحي!)([38]).

وإما أن يكون (تلقي القرآن) بمعنى: استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْرِ.

---

37 انظر ذلك مفصلا في مفردات الراغب، مادة: (لقي).

38 المفردات، مادة: (لقي).

وهو عام في كل مؤمن أخذ القرآن بمنهج التلقي على ما سنبينه بعدُ بحول الله. فذلك المنهج هو الذي به تنبعث حياة القلوب. لأنها تتلقى آنئذ القرآن (روحا) من لدن الرحمن. قال تعالى: : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا. مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(الشورى:52-53).

و(تلقي القرآن) بمعنى استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْرِ؛ إنما يكون بحيث يتعامل معه العبد بصورة شهودية، أي كأنما هو يشهد تنزله الآن غضا طريا! فيتدبره آيةً، آيةً، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حيا في عصره وزمانه! ومن هنا وصف الله تعالى العبد الذي (يتلقى القرآن) بهذا المعنى؛ بأنه (يُلْقِي) له السمع بشهود القلب! قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)(ق:37). ذلك هو الذاكر حقا، الذي يحصل الذكرى ولا يكون من الغافلين.
أن تتلقى القرآن: معناه إذن؛ أن تصغي إلى الله يخاطبك! فتبصر حقائق الآيات وهي تتنزل على قلبك روحا. وبهذا تقع اليقظة والتذكر، ثم يقع التَّخَلُّقُ بالقرآن، على نحو ما هو مذكور في وصف رسول اللهε، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لما سئلت عن خُلُقِهε؛ فقالت: (كان خُلُقُهُ القرآنَ!)([39]).

وأنْ تتلقى القرآن: معناه أيضا أن تتنزل الآيات على موطن الحاجة من قلبك ووجدانك! كما يتنزل الدواء على موطن الداء! فآدم عليه السلام لما أكل هو وزوجه من الشجرة المحرمة؛ ظهرت عليهما أمارة الغواية؛ بسقوط لباس الجنة عن جسديهما! فظل آدم عليه السلام كئيبا حزينا. قال تعالى: (فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا! وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ. وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)(طه:121). ولم يزل كذلك حتى (تلقَّى) كلمات التوبة من ربه فتاب عليه؛ فكانت له بذلك شفاءً! وذلك قوله تعالى: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم)(البقرة:37). فهو عليه السلام كان في حاجة شديدة إلى شيء يفعله أو يقوله؛ ليتوب إلى الله، لكنه لا يدري كيف؟ فأنزل الله عليه – برحمته تعالى – كلمات التوبة؛ ليتوب بها هو وزوجه إلى الله تعالى. وهي –كما يقول

[39] رواه مسلم.

المفسرون – قوله تعالى: (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(الأعراف:23) فبمجرد ما أن تنزلت الآيات على موطن الحاجة من قلبه؛ حتى نطقت بها الجوارح والأشواق؛ فكانت له التوبة خُلُقاً إلى يوم القيامة! وكان آدم عليه السلام بهذا أول التوابين! وذلك أخذه كلمات التوبة على سبيل (التلقي): (فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ)!

فعندما تقرأ القرآن إذن؛ استمع وأنصت! فإن الله جل جلاله يخاطبك أنت! وادخل بوجدانك مشاهد القرآن، فإنك في ضيافة الرحمن! هناك حيث ترى من المشاهد ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

فاقرأ إذن كما استطعت وتعلم؛ لكن بحضور قلبي تام؛ كي تتزكى. فقد رأيت أن التلاوة بدء فعلهε من التعليم والتزكية، كما مر في قوله تعالى: (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ). فالتلاوة نور في نفسها. إنها – لو أبصرتها حقا – صلة مباشرة برب العالمين؛ ذكرا ومناجاة. إن العبد التالي لكتاب الله متكلم بكلام الله. وهذا وحده معنى عظيم في نفسه، فتدبر! وهو يمهد القلب ويهيئه للخطوات التربوية التالية.

الخطوة الثانية: التعلم والتعليم بمنهج التدارس

– وأما الخطوة الثانية فهي التَّعَلُّم والتَّعْلِيم: وذلك لأحكام القرآن العظيم وحِكَمِه. إذْ خَيْرُ العلم إنما هو العلم بالكتاب، فعن عقبة بن عامر الجهني قال: (خرج علينا رسول اللهε ونحن في الصُّفَّةِ فقال: أيُّكُمْ يحب أن يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إلى بُطْحَانَ أو العَقِيقِ؛ فيَأْتِيَ مِنْهُ بناقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ[40]، يَأْخُذُهُمَا بغير إثْمٍ بالله عز وجل، ولا قَطْعِ رَحِمٍ؟ قالوا: كُلُّنَا يا رسولَ الله! قال: فَلأَنْ يَغْدُوَ أحدُكُم كلَّ يَوْمٍ إلى المسْجِدِ؛ فيَتَعَلَّمَ آيتين من كِتَابِ الله عزَّ وجلَّ؛

---

40 أهل الصُّفَّةِ: هم فقراء المهاجرين كانوا يبيتون بالمسجد النبوي. وأما بُطْحَان فهو: اسم واد قرب المدينة المنورة، وكذلك العقيق مثله. وناقتان كَوْمَاوَانِ: تثنية كوماء، وهي: الناقة العظيمة السَّنَامِ العالية. وزهراء: يعني سمينة، تميل إلى البياض من السِّمَنِ.

خَيْرٌ لَهُ مِنْ ناقتين! وثَلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأَرْبعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أرْبعٍ! ومِنْ أعْدَادِهِنَّ مِنَ الإبِلِ!)([41])

وتحصيل **العلم بالكتاب** للنفس أو تلقينه للغير، إنما يكون بمنهج الدراسة والتدارس لآياته وسوره مبنى ومعنى؛ لقول الله تعالى: (وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)(آل عمران:79). فقد قُرِئَتْ (تَعْلَمُونَ) و(تُعَلِّمُونَ) فهي عملية مزدوجة، الجمع بين شقيها في الفهم والعمل أولى: التَّعَلُّم والتَّعْلِيم. وأقل ذلك أن تكون أحَدَهما: معلما أو متعلما. بيد أن العلم ههنا إنما هو ما أفاد العمل. على قاعدة علماء مقاصد الشريعة: أن (كل علم ليس تحته عمل فهو باطل). وعلى هذا يحمل قولهع: (إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالما أو متعلما!)([42]) وقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا مُتَعَنِّتاً؛ ولكن بعثني مُعَلِّماً مُيَسِّراً)([43]). أي: معلما أعمال الخير والصلاح للعالمين، بمنهج حكيم.

فالمقصود بقوله تعالى: (تَدْرُسُون) – من آية آل عمران المذكورة – يعني تدرسون الكتابَ نفسه، على اعتبار أن الدراسة والتدارس أو المدارسة هي منهج التعلم، كما ذهب إليه الإمام الطبري رحمه الله([44]). والتدارس للقرآن الكريم هو المنهج التعليمي الكفيل بالوصول بالدارس إلى الحكمة، التي بمقتضاها يصير (ربانيا). وقد روى ابن جرير الطبري رحمه الله – عن ابن عباس وعدد من التابعين – تفسير (ربانيين) في الآية؛ بأنهم: (الحكماء الفقهاء)([45]).

فالدراسة والتدارس إذن: هو تتبع صيغ العبارات، ووجوه المعاني والدلالات للمقاصد والغايات، من كل آية وسورة، وتعلُّم ذلك كله ترتيلا وتفسيرا، بما فيه ضبط ألفاظه وآياته وسوره؛ للتعرف على أسراره وحِكَمِه. وذلك جماع ما كان يفعله جبريل عليه السلام مع

---

41 رواه مسلم وأبو داود وأحمد وابن حبان والبيهقي والطبراني.

42 رواه الترمذي وابن ماجه بسند حسن كما في صحيح الجامع الصغير:1609

43 رواه مسلم.

44 جامع البيان: 328/3.

45 جامع البيان: 325/3- 326.

رسول اللهε في ليالي رمضان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول اللهε أجود الناس! وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، **فيُدَارِسُهُ القرآنَ**، فَلَرسُولُ اللهε أجودُ بالخير من الريح المرسلة!)[46] وهو ما ذكرنا من قوله تعالى: (وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّـينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)(آل عمران:79). وذلك تفسير قوله تعالى – من آيات وظائف النبوة – (وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ). وفُسِّرت الحكمةُ بأنها: (شيء يجعله الله في القلب ينور له به!)[47].

ويجمع المرحلتين المذكورتين قبل، أعني: (التلاوة، ثم التعلم والتعليم بمنهج التدارس) ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّε فَقَالُوا أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ. يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ. فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ. يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ)... الحديث[48]. فالتدارس هو أساس التعلم كما في هذا الحديث، إذ لا علم إلا به، فأنت تبحث عن وجوه المعاني وتتدارسها؛ لتتعلم أحكامها ومقاصدها. وذُكِرَ التدارسُ أيضا في الحديث النبوي الشريف، من قوله عليه الصلاة والسلام: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)[49].

الخطوة الثالثة: التزكية بمنهج التَّدَبُّر

- **وأما الخطوة الثالثة فهي التزكية بمنهج التَّدَبُّر:**

---

46 رواه البخاري.

47 رواه الطبري عن ابن زيد، جامع البيان: 557/1

48 رواه مسلم.

49 رواه مسلم.

والتزكية: هي عملية التطهير للنفس، والتربية لها بما يخلصها من مراعاة غير الله، للوصول بها إلى منزلة الإخلاص! قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)(الشمس:9-10). وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (وَيُزَكِّيهِمْ): (يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص)([50]). ولذلك فالرسول الكريمε كان حريصا على تطهير صحابته من الأهواء، والارتقاء بهم عبر مدارج الإيمان، إلى ما هو (أحسن عملا). ولا أحسن من تخليص العبودية لله الواحد القهار، وتعبيد القلب له وحده دون سواه.

وانظر – رحمك الله – كيف ذكر (التزكية) قبل (التعليم) في الآيتين من آل عمران والجمعة، مع أنه لا تزكية بغير تعليم ابتداء، على ما ترجم له الإمام البخاري رحمه الله في كتاب العلم من صحيحه قال: (باب العلم قبل القول والعمل). وقد قُدِّمَ ذِكْرُ التعليم على التزكية – بناء على الأصل – في قوله تعالى من دعوة إبراهيم: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)(البقرة:129).

صحيح أن العطف بالواو – في الآيات كما هو في العربية – لا يفيد الترتيب، لكن التقديم والتأخير في البلاغة يفيد الأهمية؛ ومن هنا جاءت التزكية في الآيتين الأوليين مقدمة على التعليم؛ من باب ذكر المقاصد قبل الوسائل؛ لشرف الغاية وعلوها؛ وحتى لا يفتتن السائر بالوسيلة عن الغاية؛ فيضل عنها، ويكون من الخاسرين.

وإذا كانت التزكية تربيةً وتنمية لعناصر الخير والإيمان في الإنسان حتى يصفو القلب لله وحده؛ فإنها إذن تحصيل مرتبة النفس الزكية، المتخلقة بالقرآن. وهذا أمر يبدأ في الحقيقة منذ اللحظات الأولى لشروع العبد في الاشتغال بكتاب الله تعبدا. أي منذ بدء عملية التلاوة أو عملية الاستماع للقرآن الكريم بمنهج التلقي، ثم عملية التعلم بمنهج التدارس. وليست التزكية متوقفة على الدخول في مرحلة منفصلة تمام الانفصال، كما بيناه قبل. وإنما التزكية هي عملية متواصلة، تنطلق بانطلاق الدخول في العتبات الأولى للقرآن الكريم تلاوةً وترتيلا، ثم تعلما وتعليما، وتدارسا وتدريسا، ثم يكون من المؤمن آنئذ ما يكون من التزكية المنمية لعناصر الخير فيه؛ فإذا به كحقل القمح الصالح يفيض بالرزق الوفير والبركات! وما أدق وصف

---

[50] رواه الإمام الطبري، وكل ما رواه من الأقوال في الآية لا يكاد يخرج عن هذا المعنى، مثل قوله عن ابن جريج: (قال: يطهرهم من الشرك ويخلصهم منه). جامع البيان: 558/1.

النبيε لأحوال الناس إزاء الهُدَى، فيما ضربه لذلك من مثل عجيب! قال عليه الصلاة والسلام: (مَثَلُ ما بعثني الله به من الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثير، أصَابَ أرضاً فكَانَ منها طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأ والعُشْبَ الكثير. وكانتْ منها أَجَادِبُ أمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها الناسَ، فشَرِبُوا وسَقَوْا وزرَعُوا. وأصابَ منها طائفةً أخرى إنما هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كَلأً ! فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ الله ونَفَعَهُ ما بعثني الله به؛ فَعَلِمَ وعَلَّم، وَمَثَلُ مَنْ لم يَرْفَعْ بذلك رَأْساً، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ به!)[51]

فهذه إذن أصناف ثلاثة: الصنف الأول منها: هو حال من قَبِلَ الهدى وتفقه في الدين؛ حتى كان منه ما كان من الصلاح لنفسه والإصلاح للناس؛ فانتفع هو ونفع الله به غيره! وهو أحسن الأصناف؛ لأنه أوعى قلبا، وأبْعَدُ أثرا، وأدْوَمُ فضلا. والصنف الثاني: هو حال من آمن ولم يتفقه في الدين، لكنه أسهم في نقل الخير – مما سمع وتعلم – إلى الناس، فكان منهم الذين يتدارسونه ويتفقهون فيه. وأما الصنف الأخير فهو حال من أعرض عن الوحي، ولم يقبل هدى الله؛ فكان من الخاسرين!

فالصنف الأول إذن؛ الذي مَثَلُه مَثَلُ الأرض الطَّيِّبَة التي قَبِلَتِ الْمَاءَ – يعني القرآن – فَأَنْبَتَتِ الكَلأ والعُشْبَ الكثير! وذلك بسبب أنه (فَقُهَ في دِينِ الله ونَفَعَهُ ما بعثني الله به؛ فَعَلِمَ وعَلَّم!) كما في الحديث؛ هو الصنف الذي سار في تلقيه عن الله على منهج القرآن مما حُدِّدَ في وظائف النبوة من مراحل، من تلاوة وتدارس؛ لأن بذلك يكون الفقه في الدين أو لا يكون! والـ(فقه) هنا في الحديث ليس بالمعنى الاصطلاحي الضيق، من المعرفة بالأحكام الشرعية التكليفية، بل هو بمعناه القرآني الشامل، الذي يجمع كل معاني العلم بالله، وبالحقائق الإيمانية، وما يقتضيه ذلك كله من الحكمة. وهو مقصود قوله تعالى في الآية: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ). ذلك هو الفقه في الدين. وهذا كما تبين إنما هو نتيجة التفاعل مع المراحل الأولى من وظائف النبوة. وهو عين التزكية.

فالتزكية إذن؛ هي أشبه ما تكون بنتيجة للتلاوة والتدارس لكتاب الله. إلا أن هذه النتيجة لن يتم استثمارها على الحقيقة، ولا تحصيلها على التمام إلا إذا الْتُقِطَتْ بمنهج التَّدَبُّر؛ إذ التَّدبُّر –كما سترى بحول الله – هو الذي يورث القلب الاعتبار، ويمنح النَّفْسَ

---

51 متفق عليه.

العزيمةَ على الدخول في الأعمال. فالحقائق الإيمانية والحِكَم القرآنية لا تصطبغ بها النفس إلا عند التدبر والتفكر! وذلك هو معنى التخلق بأخلاق القرآن، حيث تصبح تلك الحقائق وتلك الحِكَمُ خُلُقاً طبيعيا للمسلم. على ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في وصف رسول اللهε بأنه: (كان خُلُقُه القرآن!)([52])

والتَّدبُّر وإن كان أمرا ممكنا حصوله مع الخطوتين السابقتين؛ إلا أنه لابد لتحصيل نتائجه التخلقية بصورة تربوية صحيحة، تورث زكاة النفس وجمالها؛ من أن تكون له في النفس والوجدان خطوة خاصة! يتفرغ القلب لها بجامع شعوره وكامل حضوره؛ لاستخلاص الهدايات التي وردت بها الآيات، واستخلاص سُبُلِ التخلق بها! خطوة خاصة تلي عملية التلاوة والتعلم أو التدارس، لكنها لا تنتهي بنهاية المجلس الذي عقدته لهذه الغاية، بل تستمر في النفس حركةً وجدانيةً لا تتوقف أبدا! وتلك هي ثمرة القرآن الكريم التي يتذوقها الربانيون حقا! وهي غاية الوظيفة النبوية من البلاغ الرسالي في قوله تعالى: (وَيُزَكِّيهِمْ).

فما التدبُّر إذن؟ وكيف يكون؟

تقول: تَدَبَّرَ الشيء في – اللغة — يَتَدبَّرُه بمعنى: تَتَبَّعَ دَوَابِرَه، أي نظر إلى أواخره وعواقبه ومآلاته، كيف هو إذا صار إليها؟ وكيف يكون؟ جاء في لسان العرب: (ودَبَّرَ الأَمْرَ وتَدَبَّره: نظر في عاقبته، واسْتَدْبَرَه: رأَى في عاقبته ما لم ير في صدره؛ وعَرَفَ الأَمْرَ تَدَبُّراً أَي بأَخَرَةٍ (...) والتَّدْبِيرُ في الأَمر: أَن تنظر إِلى ما تَؤُول إِليه عاقبته. والتَّدَبُّر: التفكر فيه)([53])

أما التَّدَبُّر في الاصطلاح القرآني فهو: أنك إذْ تقرأ الآيات، وتتعلم وتدرس؛ تنظر إلى مآلاتها، وعواقبها في النفس وفي المجتمع؛ فتبصر حقائقها الإيمانية إبصارا؛ فتكتسب بذلك من الصفات الوجدانية، ما يعمر قلبك بالإيمان، ويثبت قدمك في طريق المعرفة الربانية، ويضعك على صراط السير إلى التخلق بأخلاق القرآن. وبيان ذلك هو كما يلي:

إن منطلقك الأساس، في طريق المعرفة الربانية هو: أن تتعرف على القرآن، بل أن تكتشفه. ولذلك جاء الخطاب القرآني يحمل أمْرَ القراءةِ للقرآن؛ تلاوةً وترتيلاً، وأمْرَ التعلمِ للقرآن مدارسةً وتدبرا.

---

52 رواه مسلم.

53 لسان العرب، مادة: (دبر).

والتدبر هو غاية كل ذلك ونتيجته؛ ولذلك قال عز وجل: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)(سورة ص:29) فجعل غاية الإنزال للقرآن التدبر والتذكر، ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيمان. فالتدبر هو المنهج القرآني المأمور به لقراءة القرآن العظيم؛ ومن هنا زجره تعالى للناس الذين لا يتدبرونه. قال سبحانه: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)(محمد:24)، (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا)(النساء:82).

فتدبر القرآن وآيات القرآن إذن: هو —كما ذكرنا – النظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس وفي المجتمع. وذلك بأن تقرأ الآية من كتاب الله، فتنظر – إن كانت متعلقة بالنفس – إلى موقعها من نفسك، وآثارها على قلبك وعملك، تنظر ما مرتبتك منها؟ وما موقعك من تطبيقها أو مخالفتها؟ وما آثار ذلك كله على نفسك وما تعانيه من قلق واضطراب في الحياة الخاصة والعامة؟ تحاول بذلك كله أن تقرأ سيرتك في ضوئها، باعتبارها مقياسا لوزن نفسك وتقويمها. وتعالج أدواءك بدوائها، وتستشفي بوصفاتها.

وأما إن كانت تتعلق بالمجتمع؛ فتنظر في سنن الله فيه كيف وقعت؟ وكيف تراها اليوم تقع؟ وكيف ترى سيرورة المجتمع وصيرورته في ضوئها؟ عند المخالفة وعند الموافقة.. ثم تنظر ما علاقة ذلك كله بالكون والحياة والمصير؟ ثم ما موقع النفس — نفسك أنت! – من هذا كله؟

في الفرق بين التدارس والتدبر:

فتَبَيَّنَ من ذلك كله إذن؛ أن هناك فرقا أساسيا بين التدارس والتدبر، رغم وجود تداخل منهجي بين جميع العمليات والخطوات. فالتدارس: هو عملية تعليمية ذهنية، تشتغل من داخل النص القرآني لاَ خارجه، وينتجها العقلُ في علاقته بنص الخطاب القرآني مباشرةً، وفي ارتباطه بلغته وأساليبه، على قَدْرِ ما تتيحه تلك اللغةُ من مَعانٍ وحِكَمٍ ودلالات. بينما التَّدَبُّر: عمليةٌ قلبية ذوقية محضة. فهي – وإن صاحبت التدارس – واقعةٌ في النفس لا في النص! إنها حركة وجدانية تجري خارج النص القرآني، إنها تتلقى المعاني والحِكَمَ من التدارس، ثم تَدْخُلُ بها إلى أعماق النفس، أو تخرج بها إلى مطالعة أحوال المجتمع؛ لتراقب النفس

والمجتمع معاً على موازينها. تُشَخِّصُ الأمراضَ والأسقام الواقعة بهما، ثم تنظر إلى وصفات العلاج التي قدمها لها القرآن: كيف تتعامل معها؟ وكيف تستشفي بها؟ وذلك هو عين التخلق بأخلاق القرآن والتزكية بأنواره. فهذا عملٌ في النفس وفي المجتمع، لا في النص القرآني أساسا، وإن كان مَدارُهُ عليه. وذلك هو المقصود بالتدبر للقرآن في قوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ أمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟).. والله تعالى أعلم.

وهنا نلج إلى باب آخر من أبواب القرآن رديف للتدبر، بل هو منه. ذلك هو: التَّفَكُّرُ. إن التَّفَكَّرَ غالبا ما يرد مذكورا في القرآن في سياق النظر في خلق الله، والتأمل في بديع صنعه من الْمُلْكِ والْمَلَكُوت، كما في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ. وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ. رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا. رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ. رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)(آل عمران:190-194) فكل هذه الأدعية العابدة، الحارة، الخاشعة، الباكية؛ إنما هي نابعة عن الإحساس الحاصل للعبد بُعَيد التفكر في خلق الله، فاقرأ الآيات وتدبر.. تجد أن المؤمن لما يسيح في جنبات الكون الفسيح، يشعر بعظمة الله الواحد القهار، وتأخذه الرهبة من جلال ملكه وعظمة سلطانه؛ فيسرع هاربا إلى مساكن رحمته، وجمال غفرانه.

وبما أن القرآن كتاب يحيل المتدبر له على سعة الكون وامتداده الفسيح، ويرجع به إلى كشف كثير من أسرار الوجود، وغرائب الخلق؛ فإن (التدبر) الذي هو المنهج الرباني لقراءة القرآن؛ يحيل الإنسان على (التفكر) الذي هو المنهج الرباني لقراءة الكون. فيكون كل متدبر للقرآن متفكرا في الكون. فتقرأ – بقراءة القرآن – كلَّ آيات الله المنظورة والمقروءة سواء.

وبذلك كله يتم لك شيء آخر، هو: الإبصار.

إن التدبر والتفكر كليهما، يعتبران بمثابة الضوء، أو الشعاع المسلط على الأشياء، تماما كما تسلط الشمس أشعتها المشرقة – في اليوم الصحو – على الموجودات، فتبصرها الأعين الناظرة. فكذلك التدبر يكشف حقائق الآيات القرآنية، والتفكر يكشف حقائق

الآيات الكونية، حتى إذا استنارت هذه وتلك؛ أبصرها المتدبرون والمتفكرون. وكانت لهم فيها بصائر ومشاهَدات لا تكون لغيرهم. ولذلك قال عز وجل: (قَدْ جَاءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ)(الأنعام:104). وقال سبحانه: (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)(الحشر:2).

هكذا وجب أن تقرأ القرآن آية آيةً؛ اقرأ وتدبر ثم أبصر!.. عسى أن ترى ما لم تر، وتدرك من حقائقه ما لم تدرك من قبل؛ فتكون له متدبرا حقا !

ذلك كله هو أساس التزكية، ومقياس التصفية، ومنهاج التربية، وسلم العروج إلى رضى الرحمن. فاقرأ القرآن، وتدارس، وتدبر ثم أبصر!.. حتى يأتيك اليقين.

فاصبر على هذا المنهج؛ فإن كل آية تسلمك إلى الأخرى، وتفتح لك باب أسرارها وأنوارها؛ فتهبك معرفةً جديدةً بنفسك وبربك، وتبني لك من شخصيتك ما لم تستطع أنت بناءه من قبل؛ لعلة ما، أو لمانع ما! ذلك أن النور الإلهي المتفجر من الآيات – عند تدارسها – بصائرَ للمتدارسين والمتدبرين؛ يتدفق مباشرة على مرايا نفوسهم، فإذا بها مُشِعَّةٌ بنور الإيمان، مُبْصِرَةٌ ببركة القرآن بإذن الله! فتتبع مسالك النور حتى تصل، إن شاء الله.

في المنهج العملي لإقامة (مجالس القرآن)

تلك إذن هي الصورة العامة لمجالس القرآن العظيم، من حيث فضلها وأثرها التربوي في النفس والمجتمع، ومن حيث وظائفها النبوية، كما تقررت في كتاب الله وسنة رسول اللهε. بيد أننا ههنا نخلص بحول الله إلى إعطاء صورة تطبيقية عن كيفية عقد مجلس قرآني وإدارته، من بدايته حتى نهايته إن شاء الله. وذلك من خلال عرض مجموعة من الضوابط المنهجية، ذات الطابع التنزيلي العملي في الغالب. وبيان ذلك هو كما يلي:

ضوابط لإنجاح مجلس التدارس

– الضابط الأول: لابد من تجريد القصد لله! هذا أول الشروط لإنجاح المجلس القرآني؛ حتى يكون مجلسا تحضره الملائكة بإذن الله؛ وتتنزل عليه السكينة، وتغشاه الرحمة،

ويذكره الله فيمن عنده! واعلم أن القرآن الكريم لا يفتح بصائره إلا للمقبلين عليه بإخلاص! فلابد من تجديد النية كلما هممت بالخروج إلى مكان المجلس، فهو مجلسُ تَعَبُّدٍ وليس مجلسَ تَعَوُّدٍ! ولا تنس استحضار معنى الحديث النبوي الشريف، الشافي لوساوس الشيطان، الطارد لخبائثه: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى! فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله! ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه!)([54]). وتيقن – بعد ذلك – أن ما كان لله خالصا تقبَّلَهُ الله، وحَفِظَ صاحبَه وتولاه! وتيقن أن الله خبير بما توسوس به نفسك، وأنه أقرب إليك من حبل الوريد! فلا يغيب عنه تعالى من خواطرك شيء! فإذا أخلصت له وحده بما تسعى إليه من التدارس والتدبر لكتابه؛ فتح لك من أنوار القرآن ما يشرق على قلبك بمعرفة اللهِ جلَّ جلالُه، ويضيء وجدانَكَ بمحبته تعالى! وذقتَ حقا: ما جمال القرآن العظيم! وشاهدتَ من ملكوته ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

ومما يساعد (الجلساء) على تجريد القلب من غير قصد الله، ويُوَطِّنُ النفسَ على إرادة خصوص وجهه الكريم؛ عَدمُ إثقال المجلس بالطعام والشراب، فإن ذلك – إذا ثَقُلَ – مما يذهب ببركة المجلس، ويُضْعِفُ قَصْدَ التعبد فيه؛ وإذن يضيع القصد المحمود، ولا تُنَالُ الغاية المرجوة؛ فلا تكون منه نتيجة تربوية حقيقية. فإن كان ولابد؛ فشاي وحلوى قليلة، أو فاكهة، أو ما شابه ذلك مما لا مُؤْنَةَ فيه ولا كَلَفَة. ومن أراد أن يكرم أصحابه فليكن في غير موعد التدارس!

– الضابط الثاني: تَحَيُّنُ أوقاتِ الانشراح النفسي للقرآن، والإقبال الوجداني على الذِّكْر، ومَظَانِّ اليقظة الإيمانية. فلا تجعل مواعيد التدارس في يوم مكدود، مزدحم بالأشغال من أمور الكسب وأعباء الحياة، فمعنى ذلك عدم ضمان صفاء الذهن وخلو البال! إذِ النفوس المرهقة والأجسام المكدودة لن تشارك في التدارس والتدبر إلا وهي بين اليقظة والنوم! فتضعف الفائدة جدا، إن لم تنعدم! بل يجب تَحَيُّنُ يوم الراحة، وساعات الفراغ، ولحظات الحضور الذهني واليقظة القلبية، من الصباح والمساء.

---

54 متفق عليه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى نماذج من أحسن أوقات الذكر، وهي أوقات الغُدُوِّ والآصَال. فالغَدُوُّ أو الغَدَاةُ: هي ساعات أول النهار، من الفجر إلى أوائل وقت الضحى. وأما الآصال فمفرده: أصيل، وهو وقت ما بين العصر إلى الغروب. فهو سويعات آخر النهار، حيث يبرد حر الشمس، وتهدأ أشعتها، وتلين أضواؤها، وتطول الظلال وتمتد. ولذلك كان من أجمل أوقات النهار. وهذان الوقتان (الغداة والأصيل)، أو (الإشراق والعشي) هما من لحظات إقبال النفس وانشراح الصدر، والاستعداد للتدبر والتفكر. ولذلك نبه عليهما الله تعالى في كتابه لهذا الغرض. قال عز وجل: (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)(الأعراف:205). وقال سبحانه: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ. لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)(النور:36-38). وقال جل ثناؤه: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)(الكهف:28).

فإذا لم يكن سبيل إلى عقد مجلس القرآن بأحد هذين الوقتين؛ فليكن بعد المغرب، أي بين العشاءين، وهو وقت داخل أيضا في مسمى (العَشِيّ)؛ لأن العَشِيَّ في الأصل من العَشْوَةِ وهي: بداية الظلمة، عند إقبال الليل وإدبار النهار([55]). ويُتَجَنَّبُ الليلُ والسَّهَرُ ما أمكن، إلا لضرورة! فإن الليل وقت تنهد فيه الأبدان وتخلد إلى النوم، وتسأم فيه النفوس وتميل إلى الارتخاء. وإنما الليل هو الجامع لتعب النهار والْمُفَرِّغُ له! فمن لم يجد عنه بدا فلا

---

55 جاء في لسان العرب: (قال الأزهري: يقع العَشِيُّ على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، كل ذلك عَشِيٌّ . فإذا غابت الشمس فهو العِشَاءُ (...) وقيل: العَشِيُّ والعَشِيَّةُ: من صلاة المغرب إلى العَتَمَة.)(ن. مادة: عشا)

بأس به؛ لِمَا ثبت أن النبيε قد كره السهر؛ إلا لغرض التفقه في الدين والتعلم والتعليم، وهذا منه([56]).

فإذا حضر رواد المجلس، وحلَّ وقت التدارس المعلوم؛ فلا بد من:

– الضابط الثالث: وهو مراعاة أدب المجلس، وذلك بالاعتدال في هيأة الجلوس بما يحفظ للعلم وقارَه، وللقرآن جلالَه. وينبغي أن يكون ذلك بصورة تساعد على حسن الاستماع، وكمال الإنصات! فلا يصح التمدد، ولا الاسترخاء، إلا لمريض أو ذي عذر؛ أو الجلوس بهيأة تخالف الآداب الإسلامية والأذواق العامة.

فالمجلسُ إنما هو مجلسُ قرآنٍ وذِكْرٍ لله تعالى، وقد قال سبحانه: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(الأعراف:204). ومما يساعد على ذلك أن يعمد الجُلَسَاءُ إلى التَّحَلُّقِ في المجلس – ما أمكن – أي جلوسهم على هيأة حلقة، والتقارب بعضهم من بعض؛ لما ثبت في الحديث من فضل التَّحَلُّقِ لطلب العلم والذِّكْر، فمن ذلك أن رسول اللهε قال: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا! قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلَقُ الذِّكْرِ)([57]). وعن أنس رضي الله عنه عن النبيε قال: (إن لله سيارةً من الملائكة يطلبون حِلَقَ الذِّكْر!) الحديث([58])

وتلك أيضا صورة جلسة التدريس، وهيأة حلقة التعليم لدى الصحابة رضوان الله عليهم. وقد سبق وصفٌ لذلك مما رواه التابعي الجليل أبو رجاء العطاردي – متحدثا عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه – قال: (تعلمنا القرآن في هذا المسجد – يعني مسجد البصرة

---

[56] ترجم الإمام البخاري في صحيحه من ذلك بابين: أولهما: (باب ما يكره من السمر بعد العشاء)، وثانيهما: (باب السمر في الفقه والخير). وأخرج تحت كل منهما أحاديث عن النبيε. مما ينتج عنه كراهة السهر بعد صلاة العشاء إلا في الخير من التفقه في الدين والذِّكْرِ، ونحو ذلك.

[57] رواه أحمد والترمذي والبيهقي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

[58] قال الهيثمي: (رواه البزار من طريق زائدة بن أبي الرقاد عن زياد النميري، وكلاهما وثق على ضعفه؛ فعاد هذا إسناده حسنا)(مجمع الزوائد: 77/10).

- وكنا نجلِسُ حِلَقاً، حِلَقاً، وكأنما أنظر إليه بين ثوبين أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: «اقرأ باسم ربك الذي خلق». قال: وكانت أول سورة أنزلت على محمد ε)([59]).

ولابد من مراعاة المرونة في ذلك طبعا، على حسب هندسة البيت، أو طبيعة المكان المجتمع فيه. فإن لم يمكن التَّحَلُّقُ فلا حرج، فإنما القصد التقارب بين الأجسام لتحصيل تقارب القلوب، واشتراكها جميعا في النهل من فيض القرآن، والاستفادة من الأنوار اللطيفة، والبركات الخفية، المتنزلةِ رحمةً وسكينةً من عند الله!

- الضابط الرابع: عدم عقد أكثر من لقاء واحد، أو لقاءين اثنين على الأكثر في الأسبوع الواحد، من لقاءات مجالس القرآن؛ بناء على منهج التَّخَوُّلِ في الموعظة، أي جعل تزود القلب من الإيمان على فترات منتظمة وغير متتابعة،؛ حتى لا يَكَلَّ ولا يَمَلَّ. فعن أبي وائل قال: (كان عبد الله [يعني ابن مسعود رضي الله عنه] يُذَكِّرُ الناسَ في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لَوَدِدْتُ أنك ذَكَّرْتَنَا كلَّ يوم! قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أَكْرَهُ أن أُمِلَّكُمْ! وإني أَتَخَوَّلُكُمْ بالموعظة كما كان النبي**ε** يَتَخَوَّلُنَا بها؛ مخافةَ السآمةِ علينا!)([60])

---

59 رواه الحاكم، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه).

60 متفق عليه.

ويتفرع عن هذا الضابط ضابط آخر، هو: عدم طول وقت المجلس الواحد بما يخرجه عن حده. فقد أثبتت التجربة أن الوقت المخصَّصَ للمجلس إذا تعدى ساعتين من الزمان؛ انصرف الناس عن قصده الأصلي إلى غيره، وربما إلى ضده من ضروب اللغو والغيبة! وتلك خسارة للمجتمعين وأي خسارة! وأقل ما يحصل للناس عموما عند طول المجالس التَعَبٌ المِملّ ، والاستثقال الذي يزهدهم في لقاء الحصة المقبلة! وعليه؛ فإذا أكْمَلَ وقتُ اللقاء قرابةَ ساعتين؛ ما بين التلاوة والتدارس والتدبر؛ فيجب ختمه، والانصراف عن المكان المجتمع فيه، على أحسن ما تكون القلوبُ رغبةً في المزيد من الخير؛ لإبقاء نبض الشوق متواصلا إلى لقاء أسبوع قادم.

– الضابط الخامس: احترام قواعد تدارس القرآن العظيم مما سبق بيانه مفصلا من الترتيل بمنهج التلقي، والتعلم والتعليم بمنهج التدارس، والتزكية بمنهج التدبر. وبهذا نفتح باب الضوابط الخاصة لإدارة المجلس وهي:

– الضابط السادس: مبادرة أحد الجلساء من أهل العلم أو أهل الحِلْم؛ لتسيير المجلس. فلا بد لمجلس الخير من شخص ينظم سيره، ويرتب أولوياته؛ تجنبا للفوضى والارتجال، أو الانزلاق إلى غير أهداف مجالس القرآن العظيم! وقد يكون هذا المسيِّر من أهل العلم، أو من أهل الصلاح والورع عموما. وقد صَحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: (المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة!)[61]

وقد يكون مَنْ كان سببا في اجتماع المجلس وانعقاده هو من يتولى ذلك؛ بمبادرة منه أو بطلب من إخوانه، أو ربما هو يوكل الأمر إلى من يراه أصلح أو أقوى عليه. ولا مُشَاحَّةَ في هذا، فقد سبق بيان أن هذا البرنامج يصنع أساتِذَتَه! فبعد بضع حلقات من لقاءات المجلس؛ سيكون من أهله – بإذن الله – من تفقه في صناعة التربية، وحِكْمَةِ التوجيه؛ بما للقرآن من قدرة ذاتية على إنتاج أهله! ويكون الإنسان قد سلكت له الطريق إلى الربانية.

---

[61] رواه الطبراني في الكبير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون. كما رواه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه بلفظ: (العلماء) بدل (الفقهاء). وقال العجلوني في كشف الخفاء: رجاله ثقات. كما روى نحوه الديلمي عن علي كرم الله وجهه.

إلا أن من أهم الضوابط الأساسية المتعلقة بالْمُسَيِّرِ؛ في إدارة مجالس القرآن ما يأتي:

– الضابط السابع: أن يعمد إلى إشراك الجميع في عملية التدارس والتدبر. فحضوره في الغالب إنما هو منهجي إداري. فلا ينبغي له أن يتفرد بالكلام إلا إذا آلت الأسئلة إليه وكان من أهل العلم. إذْ يجب التفريق والتمييز بين مجلس الوعظ، أو الدرس، أو المحاضرة، أو نحو ذلك؛ وبين مجلس التدارس. فالتدارس مشاركة كما تدل عليه صيغة (التفاعل) من عبارته. وذلك منطوق الحديث النبوي الشريف، مما سبق إيراده من قولهε: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله؛ يتلون كتاب الله، و**يتدارسونه** بينهم...) الحديث[62]. فدور المسيِّر ههنا مساعد وموجه للقضايا والأفكار، ومحرك للقلوب والمشاعر؛ عسى أن تشارك في إنتاج الخير؛ بما تتذوقه من الآيات، وما تجده من المشاعر والأحاسيس تجاهها، بعد تلاوتها وتفسيرها ومدارستها، ثم ما ترجع به من زاد إيماني بعد تَدبُّرِهَا. وما يدريك؟ فَلَرُبَّمَا رجع بعضُهم بأكثر مما رجع به هو من حقائق الإيمان واليقين! وإنما الموفَّق من وفقه الله!

ومن القواعد التربوية المساعدة على إشراك الجميع: الحِرْصُ على عدم استفحال عدد الجلساء؛ حتى لا يكون جمهوراً غفيراً! إذْ هنالك وجب أن يُولَدَ مجلسٌ قرآني جديد! فرع عن الأول؛ لأن الجمهور الكثير إنما تؤطره المحاضرةُ، أو الخطبةُ، أو الدَّرْسُ؛ لا (التَّدارُسُ)! فهذا إنما هو خاصٌّ بِالْحِلَقِ كما تبين في النصوص السابقة! والْحَلَقَةُ لا يتصور انعقادها إلا بأعداد معقولة. وأحسب أن ما يمكن اجتماعه؛ لانعقاد الحلقة بصورة نافعة – في منهج التدارس – ما يتردد بين العشرين والثلاثين جليسا على الأكثر! وأقل الجمع ثلاثة.

– الضابط الثامن: تجنيب الجلساء الدخولَ في الجَدَلِ العقيم! فما أهلكَ كثيرا من الناس إلا الجدلُ! وفي الأثر عن بعض السلف الصالح: (إذا أراد الله بقوم سوءا سلَّط عليهم الجدل، ومنعهم العمل!) وذلك لِمَا تجلبه المناقشةُ الجدلية على صاحبها من انحراف النية، وفساد الطوية، وعدم الإخلاص في النصح لله ولرسوله وللمسلمين، وما تورثه بالقلب من الغِلِّ والضغينة على المؤمنين! وكفى بذلك مدخلا خطيرا من مداخل الشيطان! فليكن المسَيِّرُ على بالٍ من هذا الأمر؛ حتى لا تضيع جهود الخير سُدىً! ويستعان على ضبط هذا المعنى بضابط منهجي آخر، هو:

---

62 سبق الحديث بنصه مخرجا.

– الضابط التاسع: الإعراض عن اللغو من القول والابتعاد عنه مطلقا، والتنزه عن سَفَاسِفِ الكلام. فقد وصف الله تعالى خواص المفلحين من المؤمنين، فقال جل ذِكْرُه وثناؤه: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)(المؤمنون:1-3). فلا ينبغي أن يخالط مجلسَ التدارس إلا ما كان من قبيل العلم، والذِّكر، والتدبر، والتفكر، والاعتبار. وإلا أفسد الشيطان عليك مجلسَك وعبادتَك! فاستعذ بالله منه، واترك لغو الحديث! وتفرغ لذكر الله وحده! وإذا بدر شيء من ذلك من أحد جلسائك فنبهه بأدب وحكمة.

– الضابط العاشر: تحديد أهداف المجلس من التدارس، والتذكير بذلك من حين لآخر. وهو تحصيل التزكية للقلب بكتاب الله تعالى، والتخلق بأخلاق القرآن العظيم، من خلال مسالك التَّدَبُّر والتفكر. وههنا لابد من التنبيه على قاعدة منهجية هامة جدا لهذا الأمر! وهي الحذَرُ من استغراق الوقت كله في التفسير، وتتبع أقوال المفسرين من دقائق اللغات والبلاغة والإعراب، وتفاصيل الخلافات الكلامية، وتفاريع الأحكام الفقهية ...إلخ. فكل ذلك وما في معناه إنما يحتاجه أهل الاختصاص. وأما الغرض مما نحن فيه فإنما هو تحصيل الحِكْمَةِ من الآية، وإتاحة الفرصة للتدبر والتفكر؛ للوصول إلى الهُدَى المنهاجي، أي ما تضمنته الآية من الهُدَى الرباني، ومن طرائق التخلق به، وكل ما من شأنه أن تنتج عنه التزكية التي هي غاية الوظائف النبوية، والتي من أجلها أساسا أنزل الله هذا القرآن في نهاية المطاف! مما اطرد بيانه في كتاب الله بيانا واضحا، في كل سياق وكل مناسبة. قال جل ثناؤه: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ. أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)(الشورى:52-53).

ولهذا فإنه يكفي في ذلك كله تحصيل المعنى العام للآية، وما أجمع عليه المفسرون منها، أو ما عليه جمهورهم. فلا يؤخذ من المعاني اللغوية والنحوية وكذا الفقهية؛ إلا ما لابد منه لفهم المعنى الكلي للآية. فلا ينبغي أن ننسى أن غاية (مجالس القرآن) إنما هو التربية والتزكية، أي تحصيل (الربَّانِيَّة) لا تحصيل (العالِمِيَّة). ويكفيك من العلم لتحصيل الربانية ما يعرفك بالله رب العالمين! وأما (العالِمِيَّةُ) فلها سُبُلُها المعروفة عند أهلها. وإنما هذا برنامج

مقصود به سَوادُ الأمة وجمهورها العام. لا خصوص طلبة العلوم الشرعية. والآية الضابطة لهذا المنهاج هي قول الله تعالى، الذي تكرر أربع مرات في سورة القمر: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)؟!(القمر:17) فمن أراد القرآنَ للذِّكْرِ والذكرى والتربية والتزكية؛ فإنما سبيله اليُسْرُ والبساطة، ويكفيه من الأدوات اللغوية الأمرُ العام المشْتَرَك؛ لأنما المقصود هو وضعُ القلب على هدى الآية واتجاهها الصحيح. فإذا صَحَّ له الاتجاه فقَدْ أُذِنَ له آنئذ بالتدبر والتفكر. قال جل وعلا: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)(محمد:24)، وقال سبحانه: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)(سبا:46).

و من القواعد التربوية المحصِّنةِ للمجلس من آفة تبذير الوقت، أو إغراقه بدراسة الوسائل دون الغايات، أو بالخلافيات والجدل العقيم: الاعتمادُ على توزيعٍ متوازنٍ للوقت بين سائر مواد المجلس، على حسب أهميتها، بدءا من التلاوة حتى التدارس فالتدبر؛ بصورة تعطي لكل مادةٍ حقَّها دون أن تطغى على غيرها. ويمكن أن يكون ذلك بصور شتى. فالعبرة إنما هي بالنتيجة. وهي الوصول بالقلوب إلى الدخول الذاتي في جمال القرآن تدارسا وتدبرا؛ لتحصيل التزكية. ومن هنا وجب أن يتحلى الْمُسَيِّرُ بالمرونة – وبالدقة أيضا – ويوازن بين الوسائل والغايات في تنظيم الوقت؛ لتحقيق هذا الهدف النبيل!

– الضابط الحادي عشر: ومن هنا فالاقتراح الأوفق للمقصود إنما هو أن يُعْتَمَدَ تفسيرٌ مختَصَرٌ من ذلك كله، مما تلقته الأمة بالقبول وأجمع على صحته السَّلَفُ والخَلَفُ. وليس كتفسير الإمام أبي جعفر الطبري(ت:310هـ) رحمه الله أوفى بالمقصود. فهو تفسير جمع فيه صاحبه ما أُثِرَ عن الرسولε من بيان الآيات، وما أُثِرَ عن الصحابة والتابعين، ممن عُرِفَ عنهم الاشتغالُ بكتاب الله جمعا وتفسيرا. ويُعْتَمَدُ مختصَرُه فقط دون الأصل؛ لما امتاز به المختصر الذي جمع خلاصة ما ذهب إليه الإمام الطبري، مما أجمع عليه أهل التأويل للآية، أو ما عليه جمهورهم، أو ما رجحه هو رحمه الله من القول والبيان عند الاختلاف[63]. فإن لم يكن فيلتجأ إلى غيره من المختصرات الجيدة، كمختصر تفسير ابن كثير. والغاية من اعتماد

---

[63] من أحسن المختصرات لتفسير الطبري المصنَّف الذي لخصه الشيخ محمد علي الصابوني رحمه الله بمعية الدكتور صالح أحمد رضا. وقد نشرته درا الكتب العلمية ببيروت في جزأين.

المختصرات – دون المطوَّلات من كتب التفسير – هو الحصول على المعنى الأساسي للآيات دون الغرق في التفاصيل الكثيرة؛ حتى لا تتضخم العملية التفسيرية بالمجلس على حساب التدارس والتدبر.

– الضابط الثاني عشر: وهكذا فلْيُقْرَأ القرآنُ أولا! مما هو مقصود بالتدارس لذلك المجلس. ويمكن أن تُتَداولَ التلاوةُ بين جميع الحضور أو بين أغلبهم، كما يمكن أن يُكْتَفَى بتلاوة أحدهم فقط، حسب ظروف المجتمعين. ولا شك أن تداول التلاوة بين الجميع وإنصات بعضهم لبعض أفْيَدُ في التعلم، وأزكى للتدبر، كما أن تكرار الآيات نفسها التي هي مقرر المدارسة لتلك الحصة أعْوَنُ للقلب على التفقه. والتلاوة – بضوابطها المذكورة من قبل– عبادة رفيعة جدا؛ إذْ تهيء القلب للتلقي عن الله! فلا ينبغي الاستهانة بها وتجاوزها في مجالس القرآن!

وإذا كان بالمجلس من له حظ من علوم التجويد فيَحْسُنُ أن يَقِفَ الناسَ على تعلم ما يَقْبُحُ جهلُه لتالي القرآن العظيم ومُرَتِّلِه، فيتعلم من ذلك بالتدريج ما يُشْبِهُ أن يكون من المعلوم من علوم التجويد بالضرورة، أي الأساس من قواعد ذلك العلم. لكن دون إغراق المجلس بالقواعد التي قد تستغرق الوقت كله. ولا ينبغي أن ننسى أن لتالي القرآن – وهو عليه شاق – أجرا مضاعفا! كما سبق في الحديث. فلا تستغرقْكَ الوسائلُ دون الوصول إلى الغايات، وإنما هي لأجلها وُضِعَتْ!

- الضابط الثالث عشر: فإذا تمت حصة التلاوة والاستماع والإنصات إلى كتاب الله، كما يليق بكلام الله؛ فليشرع في قراءة خلاصة التفسير قراءةً مسموعة هادئة مفصَّلَةً؛ حتى يستوعب أهلُ المجلس مقاصدَ الكلام ومراميه، ثم يُشْرَع بعد ذلك في تدارس الخطاب القرآني من خلال ما تَحَصَّلَ في الذهن من معانٍ إجمالية للآيات.

وللدخول العملي في التدارس يحسن اتباع الخطوات المنهجية الآتية:

- الضابط الرابع عشر: تَنَاوُلُ قَدْرٍ قليل من الآيات يُشَكِّلُ معنى يحسن السكوت عليه، والوقوف عنده. سواء كان آية واحدة، أو ثلاث آيات، أو خَمْساً، أو سبعا. بشرط ألا يتعدى المقدار المدروس من ذلك كله نِصْفَ ثُمُن الحزب، بالتحزيب المتداول للقرآن الكريم، المطبوع في المصاحف بعلاماته المعروفة([64]). فَيُقْرَأُ ما ورد فيها من التفسير.

- الضابط الخامس عشر: يُتَحَقَّقُ من الفهم العام للمعاني التي وردت بها، وأن أهل المجلس على إدراك حسن للمقصود. ويمكن أن تثار الأسئلة حول ما أشكل منها؛ للوصول إلى بيانٍ أشمل وأوضح. ولهذا يمكن مراجعة تفسير الآيات المقصودة بالدراسة أكثر من مرة؛ إن اقتضى الحال. فإذا تبين المعنى العام فلا ينبغي الاستغراق في التفاصيل؛ لأن الغاية هي أبعد من مجرد التفسير! كما سترى بحول الله.

ولكن لابد من التنبيه إلى أمر أساس، وهو: أن على المسيِّر أن يحرص على إيصال الفهم السليم للآيات بأبسط العبارات وأسهلها إلى جميع الجلساء. خاصة إذا تبين له أن هناك شخصا منعزلا، أو في حالة شرود، لا تبدو على وجهه أمارات الاهتمام والمشاركة النفسية على الأقل! فيقوم بذلك هو بنفسه أو بواسطة غيره من جلسائه بصورة حوارية؛ إذْ بغير الفهم السليم لا يكون شيء من المقصود في نهاية المطاف! والله ولي التوفيق.

- الضابط السادس عشر: فإذا اتضح المعنى؛ وجب - بعد ذلك مباشرة - الدخول في محاولة التعرف على الهُدَى المنهاجي للآية أو الآيات، وهو عَيْنُ الحِكَم المطلوب تعلُّمُها، مما ورد في آيات وظائف النبوة: (**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**). وذلك بمحاولة استنباط الحقائق الإيمانية التي تتضمنها، والأحوال الخُلُقِيَّة التي تُرْشِدُ إليها، ومحاولة عدها باللسان،

---

[64] وهو ما يقارب — في الغالب – نصف صفحة، من صفحات المصحف المطبوع في الأحجام العادية المتداولة اليوم.

وإحصائها بالوجدان، وتداول ذلك بين سائر الجُلَسَاءِ؛ حتى ترسخ بالقلب وتتضح صورتها بما يساعد على تَدَبُّرِها.

- الضابط السابع عشر: وبمعرفة ما تيسر من الحِكَم والمقاصد نفتح باب التدبر للآيات، والتفكر في خلق الأنفس والأرض والسماوات. وذلك لغاية التخلق بأخلاق القرآن الكريم، والاتصاف السلوكي بِحِكَمِه العظيمة! والتفكر والتدبر – إذا خلص كلاهما لله- يورثان التخلق بأخلاق القرآن بصورة تلقائية، وبلا كلفة، كما بيناه من قبل بشواهده. ثم إن التدبر والتفكر أيضا – بما ينطويان عليه من إبصار للآيات([65])- يساعدان على معرفة السبل الكفيلة بتذليل النفس وترويضها؛ لقبول هذا الخُلُقِ الرباني أو ذاك، والتحلي بتلك الخصلة النبوية أو تلك.

- الضابط الثامن عشر: فإذا تمت مدارسة السورة بأكملها، بهذا المنهج المجَزِّئِ للوحدات أو الفقرات من كل سورة، في مجلس واحد، إن كانت من السور القصيرة جدا، أو عبر عدة مجالس إن كانت من السور المتوسطة أو من الطوال؛ فلا بد - بعد ذلك - من محاولة قطف الثمرات التالية من ثمار المدارسة، وهي:

أ- التعرف على القضايا الأساسية التي تعالجها السورة على الإجمال، وهي حقائقها الإيمانية الكبرى، التي تدور بفلك المحور الرئيس في السورة. ثم من خلال معرفة تلك القضايا والحقائق يمكن:

ب- التعرف على المحور الرئيس للسورة على الإجمال. فلكل سورة من سور القرآن العظيم شخصيتها المستقلة، التي بها تتميز عن غيرها في نظمها السالكِ لها بِعَقْدِ الكتاب الحكيم؛ لأن هذا وذاك هو مما يساعد - بإذن الله - على التَّمْسِيكِ بالكتاب؛ لأنه يُمَكِّنُكَ - في كل وقت وحين، بالليل أو بالنهار - من المراجعة والتقويم لِخُلُقِكَ وسلوكك، ولمستواك التربوي عموما، في ضوء ما تَحَصَّلَ لديك من الحِكَم والحقائق الإيمانية، من هذه السورة أو تلك. فضبط المحور الرئيس للسورة، مع ما يدور حوله من قضاياها الأساسية؛ يساعد على طول التدبر للآيات، والتذكر لحقائقها الإيمانية باستمرار؛ حتى بعد انفضاض المجلس، حيث تنطبع المعاني الربانية بالقلب الصافي المتجردِ لله تجردَ افتقارٍ وإخلاص. فإذا اكتمل لديك

---

65 لتفصيل معنى (الإبصار) انظر إن شئت كتابنا: بلاغ الرسالة القرآنية.

تدارس القرآن العظيم بهذا المنهج وتكرر؛ صارت خريطته الكلية مرسومة على قلبك بإذن الله؛ لِمَا تلقيت من حقائقه الإيمانية عن الله جل ثناؤه، في مجالس الملائكة! مع جلسائك من (أهل القرآن: أهل الله وخاصته)؛ فلا تتصرف في سلوكك وخلقك بعدها إن شاء الله إلا بخير! وهذا من أهم مقاصد التدارس لكتاب الله تعالى.

وهكذا نجد أنفسنا ننطلق من الجزء إلى الكل، ومن المعاني والحِكَمِ إلى السلوك والأخلاق، ثم من النفس إلى المجتمع، ومن القرآن إلى العمران! وذلك هو عين التزكية النبوية، التي هي مقصد أهل الله من الربانيين والصديقين، والتي هي غايتهم من تدارس القرآن العظيم، وتدبره بالغدو والآصال. والله الموفق للصواب والمعين عليه.

- الضابط التاسع عشر، وهو:

الضابط الجامع

والضابط الكلي، الجامع لضمان سير مجالس القرآن ونجاحها هو: الحفاظ على ميثاق القرآن العظيم، والالتزام به بقوة! إذ بذلك يعرف الجليس الصادق من غيره. وإنما برهانُ صِدْقِ الجليس، وحقيقةُ انتسابه إلى أهل الله من (جلساء الملائكة)، ومصداقية ذلك كله متوقفة على مدى التزامه بميثاق القرآن العظيم. وهو عَهْدَان: عَهْدُ فِعْلٍ وعَهْدُ تَرْكٍ. فأما عهد الفعل فهو يتلخص في ثلاثة التزامات:

- الالتزام الأول: الحفاظ على أوقات الصلوات المفروضة بالمسجد، من الفجر إلى العشاء؛ إلا لضرورة شرعية. مع تأكيد النفس وتوطينها على صلاة الفجر وصلاة العشاء، والاجتهاد في ذلك كله لإدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام، على قدر الإمكان.([66]) فالصلاة هي خير أعمال المسلم على الإطلاق كما تواتر معناه بطرق شتى! وهي العبادة الوحيدة

---

[66] عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللهε: (من صلى لله أربعين يوما في جماعة، يدرك التكبيرة الأولى؛ كُتِبَتْ له براءتان! براءةٌ من النار، وبراءةٌ من النفاق!) رواه الترمذي في سننه، والبيهقي في شعبه، وعبد الرزاق في مصنفه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، بينما حسنه فقط في صحيح الجامع الصغير.

الحاكمة على ما سواها من الأعمال والعبادات بإطلاق! إذا استقامت للمؤمن حقيقتُها وانكشف له سِرُّها؛ استقام له كل شيء من دينه ودنياه! كما فصلناه بأدلته بمحله، فتأمل![67] ويكفيك من ذلك قولهε: (استقيموا ولن تحصوا! واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة! ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن!)[68].

– الالتزام الثاني: الحفاظ على تلاوة جزء من القرآن الكريم لكل يوم، على الدوام، في الحَضَرِ والسَّفَر سواء! حتى يكون ختم القرآن لكل فرد من أفراد المجلس عند نهاية كل شهر. وبهذا يضمن العبد السالك إلى الله زادا إيمانيا يوميا، ومنهجا لتذكر حقائق الإيمان التي استفادها من مجالس التدارس القرآني. فالتلاوة المستمرة تذكيرٌ وأيُّ تذكير! لمن ذاق حقيقتَها وشاهد فضيلتَها.

– والالتزام الثالث: الاجتهاد لضم جليس جديد، أو جلساء جُدُد؛ إلى مجالس القرآن، متى سنحت الفرصة، أو إنشاء مجلس جديد على التمام. وتلك نعمة إيمانية — إن أكرمك الله بها – ولا كأي نعمة![69] فالحرص على نشر الخير والدعوة إليه؛ سِمَةٌ أساسيةٌ للمؤمن الصادق، مهما لقي في سبيل ذلك ما لقي من الحرج والعنت.

والآية التي هي الشِّعَارُ الجامِعُ لذلك كله من كتاب الله جل ثناؤه، هي ما سبقت الإشارة إليه من قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)(الأعراف:170). تَمْسِيكٌ بالكتاب أولا: وهو الأخذ بحقائقه الإيمانية بقوة، وإقامة للصلاة ثانيا: وهو إحسان أدائها والسير إلى الله عبر مواقيتها، ثم انطلاق إلى الإصلاح والدعوة إلى الخير. (إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ).

ولا أفضل في تلك من خدمة كتاب الله تعالى عموما! ثم لا أفضل في هذه من خدمته بإقامة (مجالس القرآن)، والدعوة إلى بنائها وتكثيرها في الأمة، ونشرها بين الأُسَرِ

---

67 انظر إن شئت (البلاغ الرابع) من كتاب (بلاغ الرسالة القرآنية)!

68 رواه أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والدارمي، والبزار، والبيهقي، والطبراني. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: 952.

69 لقد تم تفصيل الأدلة الدالة على فضل هذه الأعمال الثلاثة في الإسلام بما فيه الكفاية في كُتَيِّب بلاغ الرسالة القرآنية. ضمن (البلاغ السابع).

والأقـارب، وبـين الأحبـاب والأصـحاب، سـواء في صـورة (المجـالس الأسـرية)، أو في صـورة (صالونات القرآن).

والحقيقة أن المؤمن إذا استفاد من (صالون القرآن) بمجلس عام؛ وجب أن يفكر في أبنائه وأهله، وألا يحرمهم من هذا الخير العظيم، ويتفرد هو من دونهم بالتزود من نوره. وإنما منهج الأنبياء والصديقين أنهم كانوا يدخلون نور الإيمان إلى ذويهم أولا! وقد مدح الله نبيه إسماعيل عليه السلام بذلك فقال جل ثناؤه: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)(مريم:55).

ومن هنا فالمجلس القرآني الناجح حقيقة، هو الذي استطاع جلساؤه أن ينقلوا التجربة الإيمانية إلى داخل أسرهم؛ بتكوين (مجالس أسرية) للقرآن الكريم، يكون جلساؤها: الأطفال والملائكة! فأنْعِمْ به من مجلس مبارك إذن! وأنْعِمْ به من بيتٍ طاهرٍ، أفاض عليه الله بالنور والجمال!

هذا ويمكن أن تتعدد صور إخراج مجالس القرآن وصالوناته، وذلك بتنظيمها – مثلا – على حسب المهن، أو على حسب الاختصاصات، أو على حسب الأحياء السكنية، أو على حسب الأعمار، كـ(**مجالس الشباب**) مثلا.

ومن أهم الصور الضرورية لمجالس القرآن التي ينبغي أن تبادر الأمة إلى إنتاجها: (**مجالس النساء**)! وقد كان ذلك موجود ومطلوبا على عهد رسول اللهε، بل هو الذي أسسها عليه الصلاة والسلام بنفسه، وأشرف عليها بذاته! فقد ترجم الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه: (باب هل يُجْعَلُ للنساءِ يومٌ على حِدَةٍ في العِلْم؟) ثم أخرج بسنده رحمه الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: (قالت النساء للنبيε: غَلَبَنَا عليكَ الرِّجالُ! فاجْعَلْ لنا يوما من نفسك! فوَعَدَهُنَّ يوماً لَقِيَهُنَّ فيهِ، فوعَظَهُنَّ وأمَرَهُنَّ!).. الحديث([70]). ولا شك أن إحياء (مجالس النساء) بتأسيس مجالس قرآنية لهن خاصة! هو إحياء للسنة، ووعي عميق بالضرورات المعاصرة لانطلاق الأمة، واستئناف سيرها في بعثة تجديد الدين.

---

[70] رواه البخاري.

وإنها لدعوة للإيمان، وخدمة للقرآن، وأي خدمة! لمن رام الدخول في أنوار الآية العظيمة: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ! وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ!)(فصلت:32-34). والله الموفق للخير والمعين عليه.

وأما (عهد الترك) فهو أيضا يتلخص في ثلاثة التزامات، وهي تتحقق عند المؤمن بمعاهدة الله – جَلَّ جلالُه – على ترك الموبقات الثلاث – أعاذنا الله وإياكم منها! – والانقطاع عنها بتاتا! فلا يصح سيرٌ إلى الله ولا يستقيم؛ ما دام العبد متلبسا بها أو ببعضها، وما دام لم يتب منها توبة نصوحا! وعهده فيها هو كما يلي:

– معاهدةُ اللهِ – جَلَّ جَلالُهُ – على ترك المال الحرام، وعلى رأسه الربا بكل صوره، وكذلك كل كَسْبٍ حرام، وأكل أموال الناس بالباطل، من رشوة وغيرها.

– معاهدة الله على ترك الزنا، وعدم الاقتراب من طرقه، وأسبابه، ومقدماته، وتجلياته، من مُخَادَنَةٍ، وبَذَاءَةٍ، وعُرْيٍ، وفُحْشٍ في اللباس والكلام والأخلاق...إلخ. وكذا مجاهدةُ النفس على غَضِّ البصر، وترك النظر الحرام! لأن النظر الحرام يطمس البصيرة، ويذهب بالحياء، ويطفئ نور التقوى في القلب، ويخسف بجمالَ الورع في النفس، ثم يمسخ وجه صاحبه! وهو سبب كثير من الفساد والبلاء، والعياذ بالله! فلا تستهن به!

– معاهدةُ الله تعالى على ترك الخمر، ومقاطعتها من كل الوجوه بتاتا: شربها، وإنتاجها، وتجارتها، وسائر الخدمات القائمة عليها بإطلاق! ومحاربة ملحقاتها من سائر أنواع المخدرات!

فإذا ثقلت عليك الانطلاقة إلى الله، ولم ينكشف لك نور القرآن، ولم تتبين لك حقائقه الإيمانية بمجالسه، أو لم تستقم لك الصلواتُ الخمس على مواقيتها وجماعاتها، أو لم يتخلص لك خشوعُها وجمالُها؛ فراجع نفسك في هذه الموبقات الثلاث! أو في ملحقاتها! وانظر: ما مدى أدائك لحق الله فيها؟ فإنه لا يستقيم للعبدِ سَيْرٌ إلى مولاه؛ ما لم تزل فيه لَوْثَةٌ من هذه اللوثات الثلاث! فلتتحرر من عبادة الشيطان أولا! حتى تكون عبدا لله بحق، وتستحق صفة

(جليس الملائكة)! فإنما (الجلساء) هم الأتقياء! وآنئذ يقال لهم ولمن معهم: (هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم!) كما سبق بيانه في الحديث مفصلا([71]).

خَاتِمَةُ خَيْرٍ

وبعد،

فهذا مشروع القرآن الكريم بين يديك الآن.. وهذا طريقُه السيَّارُ منفتحٌ على معراج الروح.. وحاجة النفس إلى بصائره مستصرخة مستغيثة! خاصة في هذا الزمان! إلا أن القرآن لا يفتح أبواب أسراره إلا لمن أقبل عليه بشروطه. وإنما شروطه أمران: إخلاص القصد لله تعالى، ثم أخذ الكتاب بقوة!

فأما بيان الشرط الأول: فبإخلاص القصد عند بدء السير إلى منازل القرآن، وبتحقيق الصدق في طلب مجالسه؛ يفتح الله لك أبواب الخير، ويمهد لك الطريق إلى الجنة، ويوكل بك ملائكة الرضى! وتأمل حديث رسول اللهε: (مَنْ سَلَكَ طريقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلْماً سَهَّلَ الله له به طريقاً إلى الجنَّة! وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتابَ الله، ويَتَدارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكينَةُ، وغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ، وحَفَّتْهُم الملائِكَةُ، وذَكَرَهُم الله فيمَنْ عِنْدَهُ! ومَنْ أبْطَأ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بهِ نَسَبُه!)([72]). وقوله عليه الصلاة والسلام في

[71] لا ينبغي أن يفهم أن هذا الجليس الذي (لا يشقى بهم)، ممن وُصِفَ في الحديث المذكور بذلك؛ أنه امرؤ سوء، أو أنه شخص فاسق أو فاجر! ثم مع ذلك صار منهم! كلا! فهذا المعنى لا يستقيم، وإنما عبارة الحديث هي قولهε: (فيقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان! ليس منهم، إنما جاء لحاجة! فيقول [أي الله تعالى]: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم!)(متفق عليه) فليس ذلك بمعنى أنه شخص منحرف بالضرورة، كلا قطعا! وإنما غاية ما يستفاد من العبارة ومن مقتضياتها الدلالية هو أنه شخص لم يجلس مع الجلساء لقصد التلاوة والتدارس، أو لقصد التعبد، وإنما جاء لغرض له عند أحدهم فهو ينتظره مثلا، أو نحو ذلك من المعاني التي لا تقدح في صلاحه ومروءته. وعبارة الحديث لا تمنع أن يكون الرجل من الصالحين! ولذلك لحق بهم، ما دام هو الآن جالس في مجلسهم، ولو لغير قصدهم في هذه الساعة! وهذا – مع ذلك – لا يمنع أن يقصد قصدهم فيها بالتبع لا بالأصالة، كما يعبر الأصوليون!

[72] رواه مسلم.

حديث آخر: (مَنْ سَلكَ طريقاً يطلب فيه عِلْماً سَلَكَ الله بهِ طريقاً مِنْ طُرُقِ الجنَّة! وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحَتَها لطالِبِ العِلْمِ رِضاً بما يَصْنَعُ! وإنَّ فَضْلَ العَالِمِ على العَابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ علَى سائرِ الكَوَاكِبِ! وإنَّ العَالِمَ ليَسْتَغْفِرُ لهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأرْضِ! حتَّى الْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الماء! إنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنْبِيَاء! وإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دينَاراً ولا دِرْهَماً، وإنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ! فمَنْ أخذَهُ فقَدْ أخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ!)([73]).

وهل فوق تعلم القرآن – تدارسا وتدبرا – عِلْمٌ أرقى؟ كلا قطعاً! وهذه شهادةُ رسول اللهε حاكمةٌ على مراتب الناس من سائر العلوم إلى يوم القيامة! قال عليه الصلاة والسلام: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ!) وله صيغة أخرى: (إنَّ أفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ!)([74]) هكذا على العموم والإطلاق! فلا مجلس أفضل بعد ذلك؛ من (مجالس القرآن) التي نُصِبَتْ بإخلاص لهذه الغاية الرفيعة!

وأما بيان الشرط الثاني: فإن القرآن لا يستقيم سَيْرُ العَبْدِ بين مَسَالِكِهِ إلا إذا أخذه بقوة! ذلك منهج الأنبياء والصِّدِّيقِين. قال الله جل جلاله لرسوله موسى عليه السلام: (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)(الأعراف:145)، وقال لنبيه يحيى عليه السلام: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ!)(مريم:12) وقال لخاتم الأنبياء سيدنا محمدε:(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)(المزمل:5). ثم قال له: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا. وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا!)(الكهف:27-28).

فـ(الأخذ بقوة) هو: الأخذ بعزم وبحزم، والصبر على حمل الأمانة وثقل الرسالة! والصبر على طول الطريق! والثبات على الحق! فالشيطان لك بالمرصاد، يثبطك، ويبطئك عن

---

[73] رواه أحمد، وأصحاب السنن، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، وفي تعليقاته على سننهم.

[74] رواه البخاري بالصيغتين معاً، عن عثمان رضي الله عنه مرفوعا إلى النبيε.

المضي في طريق الله؛ فالصَّبْرَ الصَّبْرَ على دوام ذكر الله في صحبة الصالحين، ومَعِيَّةِ الربانيين، بمنهج القرآن، وبرنامج القرآن. وإنما الموفق من وفقه الله!

فالقرآن العظيم هو عهد الله إلى الناس أجمعين، فهل عقدت عليه عزمَك، وأبرمتَ عليه ميثاقَك؛ أم أنك ما تزال من المترددين؟ نعم لك أن تنظر ماذا ترى؛ ولكن اعلم أن العمر لا ينتظرك، ولا هو ينتظر أحداً من العالمين! وأن الأرض تجري في دورتها الفلكية لتلقي بك عن كاهلها قريباً، هناك لدى وصولك محطتك الأخيرة! فالبِدَارَ البِدَارَ قبل فوات الأوان!

فلنختم هذه الورقات بما بدأناها به: قول الله جل ثناؤه: (أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)؟! (الحديد:16)

فاللهم إني عبدك! وابن أمتك، ناصيتي في يَدِكَ، مَاضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك. أسألك بكلِّ اسمٍ هو لَكَ، سَمَّيْتَ به نفْسَكَ، أو أنْزَلْتَهُ في كِتَابِكَ، أو علَّمْتَهُ أحداً من خلقِكَ، أو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغَيْبِ عندَكَ؛ أنْ تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونُورَ بَصَرِي، و جَلاءَ حزني، وذهابَ هَمِّي وغَمِّي!

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم!

انتهى بحمد الله وتوفيقه تعالى.